

رواية

أيام مع الباشا

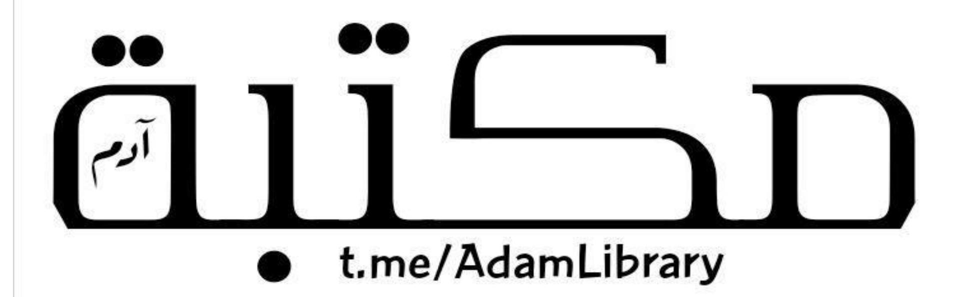
حسن الجندي

دارك

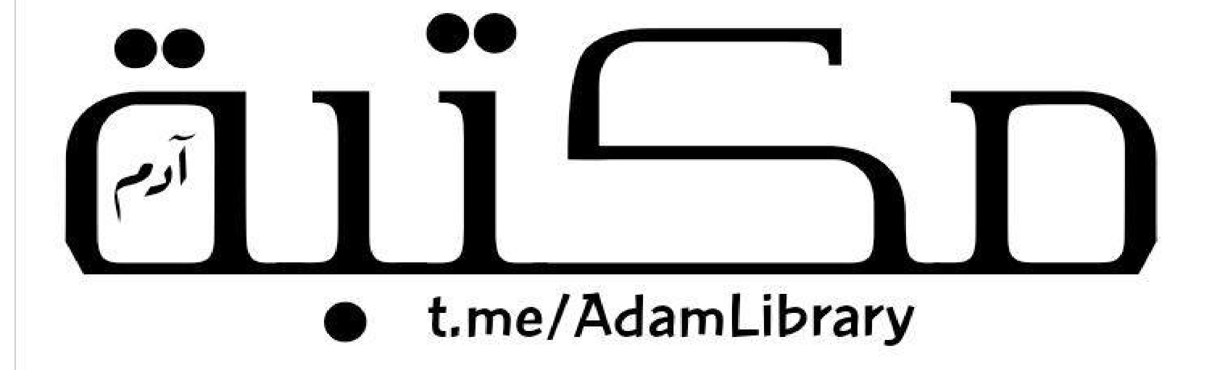
حسن الجندي

ليلة في جهنم

أيام مع الباشا



في تلك القصة يختلط الواقع بالخيال، فإن أردت التمييز



الفصل السابع

ما حدث

2005

منزل أبو خطوة

وقف (عمر) أمام باب المنزل الحديدي يشبك يديه أمام صدره ناظرًا حوله بشكل عشوائي كل دقيقة، مرت سيارة ملاكي من أمامه لكنها توقفت بعد المنزل بقليل، خرج من المقعد المجاور للسائق (أليكسندر) يرتدي بذلة بنية اللون حاملًا حقيبة جلدية عريضة أقرب لحقيبة الملابس المحمولة.

حاول (عمر) تبيُّن شكل السائق لكنه فشلَ و(أليكسندر) يسير ناحيته مبتسمًا وهو يرفع رأسه لينظر للمنزل بين الثانية والأخرى، صافحه بحرارة ونظر للمنزل بتأثُّر شديدٍ و(عمر) يقف بجانبه.

- "عرفت توصل للبيت بسهولة؟"

- "الدنيا اتغيرت لكن البيت زي ما هو، أنا عمري ما أنسى مكانه."

فتح (عمر) البوابة الحديدية الصغيرة ودخل للمنزل، لكن (أليكسندر) توقف للحظة وهو ينظر خلفه على الجانب الآخر للطريق، كأنه يبحث عن الشخص الذي رآه يقف هناك في حلمه.. لم يجد أحدًا فسحب شهيقًا عميقًا من الهواء المحيط به ودخل من البوابة الحديدية وراء (عمر) الذي وقف ليفتح الباب الداخلي بمفتاح منفرد أخرجه من جيبه.

- "أنا ملاحظ يا أستاذ (عمر) إنك مجبتش معاك أدوات حفر."

فتح (عمر) الباب وهو يرد:

- "أنا عديت على البيت من كام ساعة وسبت جاروفين."

- "بس."

- "إنت مطلبتش امبارح عدة حفر، ولا طلبت عمال."

دخلا المنزل و(أليكسندر) يقول:

- "إحنا فعلًا مش محتاجين الحاجات دي كلها، بس كأنك عارف إيه اللي هايحصل قبل ما يحصل."

بدا أن الهواء داخل المنزل أكثر سخونة بقليل من خارجه و(أليكسندر) يحرك وجهه مبتسمًا وهو ينظر إلى بئر السلم المليء بالأتربة، توجَّه (عمر) إلى الشقة التي على يسار المدخل ودخلها وهو يقول:

- "طبعًا الحاجة المدفونة هاتكون في الشقة دي."

تبعه (أليكسندر) قائلًا:

- "الظاهر الحلم اللي إنت حلمته كان فيه تفاصيل كتير."

الهواء ساخن داخل الشقة بدرجة أعلى و(عمر) يشعل أضواء المصابيح الباهتة المعلقة في سقف الصالة.. في أحد أركان الصالة جاروفين بيد طويلة وجوال من الجلد يستخدم في حمل الرمال، نظر (عمر) لأليكسندر وهو يقول:

- "أدي الجمل وأدي الجمال.. تحب نبدأ إزاي؟"

تأمل (أليكسندر) صالة الشقة وهو ينظر للحوائط الملطخة ويقول:

- "المدبحة حصلت هنا؟"

- "إنت أكيد عارف حكايتها طالما قدرت تعرف إني بحب العناب."

- "الناس فاكرة إن البيت ده مسكون، بس العفاريت والجن بالنسبة للي شُفته مع جدك بقى ترف."

- "عمر ما جدي حكالي عنك."

ترك (أليكسندر) حقيبته على الأرض وذهب ليحضر الجاروفين وهو يقول:

- "أنا وجدك قدرنا نفصل بين حياتنا الشخصية وبين شغلنا، زي ما جدك علِّمك بالظبط."

رفع الجاروفين بسهولة ودخل بهما إلى أول غرفة على يمين الداخل إلى الشقة وصوته يأتي من داخل الغرفة:

- "حياتنا الشخصية دايمًا في النور، وشغلنا في عالم ظلامي، وإحنا فيه مجرد ظلال بتتحرك."

دخل (عمر) في تلك اللحظة وضغط على زر الإضاءة داخل الغرفة فاشتعل المصباح لتنعم الغرفة بإضاءة باهتة و(عمر) يقول:

- "ولو انهار الخط الفاصل بين العالمين واختلطت الضلمة بالنور.. حياتنا تتدمر."

ابتسم (أليكسندر) وهو يقترب من (عمر) ويقول:

- "جدك قالك على المبدأ ده، اللي علمنا كده كان صاحب تالت لينا، كان سبب اجتماعنا وسبب فراقنا."

قال عبارته ثم أمسك بجاروف ناوله لعمر قائلًا:

- "يلّا نبدأ شغل، مش هنحتاج نحفر كتير، الرمل اللي في الأوضة ده مش أكتر من متر ونص عمق، بعديه هانلاقي المدخل."

خارج الشقة وبالتحديد عند السلم المؤدي إلى الطابق الأول، هبط (جعفر) من الأعلى بخطوات جعلها غير مسموعة كما طلب منه (عمر) منذ ساعة، أرهف السمع ليستمع لبقية الحوار الدائر بينهما منذ دخلا من باب الشقة، الحوار يأتي كفحيح الثعابين يميز منه بضع كلمات بين كل مجموعة من الجمل، لذلك فضَّل الجلوس على السلم بهدوءٍ حتى يحين موعد دخوله إن كان لدخوله سبب.

في داخل الغرفة وقف (أليكسندر) حاملًا الجاروف وهو يحفر بحماسٍ شديدٍ ويزيح الرمال الصفراء وعلى وجهه فرحة حقيقية كأنه طفلٌ يحاول فتح هدية عيد ميلاده بشوق.

- طب ما تقلع جاكيت البدلة علشان تعرف تحفر.

قال (عمر) عبارته وهو يتناول الجاروف ويحفر بجانبه بحذرٍ، لم يرد عليه (أليكسندر) وهو يزيد من سرعة الحفر وتركيزه كله ينصب على ما يفعله بينما قطرات العرق تتساقط بسرعة من جبهته بسبب سخونة الهواء داخلِ الغرفة، مرت ربع ساعة وهما يحفران حتى اصطدم جاروف (عمر) بمعدن صلب، توقف عن الحفر وتراجع خطوةً للوراء مجفلًا، صاح (أليكسندر) بكلمة روسية وهو يلقي بجاروفه أرضًا وينزل على ركبتيه عند موضع حفر (عمر) ويزيح بيده الرمال لتظهر

أرض صلبة صفراء اللون، لم يعرف (عمر) ما يفعل فهو لم يشاهد من قبل مدخل قبر أو دفين من معدن، لكن بعد دقيقة من إزاحة الرمال ازداد تشككه وهو يرى خطوطًا متصلة محفورة داخل تلك الأرض المعدنية، خطوطًا أكثر قربًا لمتاهة كالتي تجدها في كتب التلوين، صاح (أليكسندر) بالعربية:

- جهز نفسك علشان نفتح المقبرة.

أنهى عبارته ونهض مسرعًا إلى خارج الغرفة عند حقيبة السفر التي أحضرها معه، فتحها وأخرج منها بضع أدوات وقارورة زجاجية فارغة وعاد للغرفة وهو يشير لذراع (عمر):

- شمر دراعك علشان أسحب دم منك.

- إنت اتجننت.. دم إيه اللي تسحبه مني؟ مفيش رصد بيتفتح بالطريقة دي، ثم أنا مش فاهم إيه الأرض الحديد اللي لاقيناها؟

أخبره (أليكسندر) بنفاد صبرٍ أن الأرض المعدنية هي البوابة الأولى التي يجب أن يتخطوها، والطريقة الوحيدة هي أن يسحب الدم منه لينثره بين الفتحات المحفورة، لا توجد طريقة لفتح المكان سوى بدماء نسل عائلة (أبو خطوة).

- جدي (سيد أبو خطوة) ماقالش حاجة زي كده.

- لأنه كان قرر إن السر يموت معاه وماحدِّش يفتح البيت من بعده.

- مستحيل تكون دي طريقة لفتح مقبرة، دمي هايتعرف إزاي؟ هو فيه جهاز لتحليل (الدي إن إيه) تحت.

ضحك (أليكسندر) بعصبية وهو يمد يده لذراع (عمر) الأيسر بشيء من العنف ويشمر عن ساعده، وهذا الأخير قد استسلم له وتعبير الدهشة والشك لم يغادر وجهه، وضع محقنًا باحتراف عند أحد أوردته وأوصله بخرطوم قصير لزجاجة فانسال دم (عمر) ببطءٍ يملأها وهو ينظر لأليكسندر ويقول:

- ده مش رصد ميكانيكي، وحتى لو كان كده فمفيش منطق يبرر اللي بتعمله ده.

- إنت ماتعرفش قيمة أجدادك يا (عمر)، إنتوا حُرَّاس وادي هنم.. جهنم، جدودك كان معاهم الطريق اللي يفتحلهم أسرار الكونِ لكنهم اكتفوا إنهم يستنوا، أنا وإنت هانبدأ هانغير العالم.

لم تَرُق كلمات (أليكسندر) له وهو ينظر بعينٍ متسعة للقارورة التي اقتربت من الامتلاء حتى منتصفها، كلماته كأنها خرجت من مجنونٍ بأحد الأفلام الأمريكية، لكن فضوله لاكتشاف ما تحت المنزل والذي تفشل خدمته من الجان في

معرفته كان دافعه، كما أن شغفه لمعرفة نهاية الأحداث جعله ينتظر بصبرٍ كما هي عادته، قديمًا كان يحب مشاهدة الأفلام التي يشعر في بدايتها بالملل حتى النهاية، فربما وجد مفاجأة تغير وجهة نظره للفيلم، عادة قميئة لازمته طويلًا وها هو ينتظر أن يعرف ما وراء هذا الرجل الروسي، ولكن هذا الفيلم غير ممل، إنه مرعب.. خطر خاطر في عقله فجأة فقال لأليكسندر:

- إنت تعرف مهندس اسمه (هيثم)؟

- صاحبك اللي كان بيدور ورايا، ما أعرفوش شخصيًا لكن أيوه أنا اللي سربت ليه المعلومات اللي جابها ليك، معلومات مفيهاش حاجة صح إلا اسمي.

- ليه عملت كده؟

كانت القارورة قاربت على الامتلاء فنزع المحقن من ذراعه ووضع لاصقًا طبيًّا على موضعها وهو يأمر (عمر) بالضغط على مكان خروج المحقن ثم يقول:

- لأن (هيثم) دا مكنش هايعرف يوصل لأي حاجة، وده كان هايخليك تقلق وممكن ماتقابلنيش.

وكأن ما يقوله طبيعيًا، أخذ القارورة وثبت على غطائها مضخة صغيرة لتدفع الهواء داخلها ويخرج الدم من خرطوم صغير، قرب الخرطوم من الفتحات المحفورة بالأرض وضغط

المضخة لتخرج الدماء من الخرطوم وتغرق الخطوط، الغريب أن الفتحات امتصت الدماء، في تلك اللحظة كان (أليكسندر) منهمكًا في ذلك الأمر وهو منحني معطيًا ظهره لعمر الذي وقف خلفه وعيناه مثبتتان على ظهره، تحت جاكيت البدلة التي يرتديها (أليكسندر) ظهر انتفاخ بسيط لم يفهم سببه، انتفاخ لشيء معدني يُشبِه المسدس عند منتصف ظهره، قبل أن تنسال الأفكار في عقله شعر بهزة بسيطة تنبع من داخل الأرض التي يقف عليها، تراجع للوراء أكثر. و(أليكسندر) ينهض ويتراجع مثله حتى خرجا من الغرفة.

صوت احتكاك معدني أقرب لصوت بوابة حديدة تفتح وتصدر صريرًا عاليًا، ثم انفتح جزء من الأرض المعدنية التي تشربت الدماء، انفتح بطريقة ميكانيكة بطيئة جدًّا وبشكل أسطوري و(أليكسندر) يشهق وهو يشاهد طبقات من الرمال داخل الغرفة تسقط داخل الفتحة تلقائيًا و(عمر) يتراجع أكثر مبتلعًا ريقه والعرق ينهال من كل مسام جسده وهو يشعر بأن سخونة الهواء تتزايد أكثر فأكثر مما قبل، كل من دخل المنزل شعر بذلك الدفء المزعج بدون سبب، ذلك الدفء الذي تزايَد الآن أكثر مما يعني أن ما يتسبب بهذا يقبع تحت المنزل وها هو سيكتشف ماهيته.

توقف صوت الاحتكاك المعدني و (أليكسندر) يذهب للحقيبة ويفتحها مُحضِرًا منها كشاف إضاءة كبير الحجم وقطعة قماش سوداء ناولها لعمر المذهول طالبًا منه أن يغطي بها عينيه ثم ينزل لداخل الفتحة.

- يا سلام!!! إنت مخبول!!

- جدك عرفني إنك لازم تنزل أول واحد وإنت مغمض عينيك، فيه ضوء أبيض هايستمر للحظات لو عينك كانت مفتوحة ممكن تتعمي.

- أنا هاغمض عيني.

أصر (أليكسندر) بعصبية أن يضع القماشة على عينيه كي لا يترك شيئًا للصدفة، ولم يعرف (عمر) سبباً لقبوله ذلك الشيء لكنه أخذ القماشة بعد أن خلع نظارته ووضعها بجيبه ودخل الغرفة بحذرٍ وهو يقف أمام الفتحة المعدنية ويجد درجات سلم حجرية تمتلئ بالرمال المتساقطة من الغرفة، درجات تقود للأسفل المظلم، نظر لأليكسندر هنيهة ثم عاد ينظر للفتحة مفكرًا بعمق.. مرت لحظات تنفس بعدها بعمق وقد اتخذ قراره، رفع القماشة لوجهه معصبًا عينيه وتحسس بقدمه الدرجات وهو ينزل درجة درجة بحذر فاردًا يده أمامه ليصنع اتزانًا خياليًا، كلما نزل أكثر كلما زادت سخونة الهواء وعرقه

يبلل ملابسه أكثر وأكثر ورائحة عطنة تزداد وضوحًا، رائحة اشتم ما يشبهها كثيرًا في مقابر عديدة فتحها، لكنها كانت أكثر قوة ها هنا.

عدَّ درجات السلم حتى وصل للدرجة الخامسة والعشرين توقف بعدها محاولًا التقاط صوت ما بجانبه، صوت يماثل ما تسمعه عند تشغيل مروحة هواء بجانبك عدا أنه لا يشعر بالهواء بل بالدفء، قرر أن يكمل الهبوط للأسفل حتى وصل للدرجة الستين، وبدأ يفهم شيئًا، يمينه ويساره يمتلئ بصوت تلك المراوح والتي تزيد سرعة دورانها كما يشعر، فجأة توقف صوت دوران المراوح وجاء صوت صفير خفيف.. هنا انتصب شعر ساعديه، حرك رموش عينيه لتفتح بصعوبة خلف القماشة المحيطة برأسه فشعر بضوءٍ أبيض كاد أن يحرق شبكية عينيه.

أغمض عينيه بسرعة وهو يفهم سر إصرار (أليكسندر) على ربط القماشة على عينيه، لقد علم بوجود هذا الضوء، ارتبك.. هل يكمل نزول أم يتوقف، لكن صوت الصفير توقف وتبعه صوت (أليسكندر) من الأعلى يقول:

- ممكن تفتح عينيك؟ خلاص.

أزال العصابة وصوت خطوات (أليكسندر) وهو ينزل الدرجات يأتي من الأعلى، ما رآه حوله أسقط فكه الأسفل لا

شعوريًا من الدهشة، بالفعل اختفى الضوء الذي كاد أن يعميه لكنه يرى الآن على جانبي درجات السلم كرات زجاجية في حجم البرتقالة مضاءة بالأبيض القوي.. أما صوتً المراوح فلم يجد مصدرًا لها، (أليكسندر) ينزل الدرجات أسرع وهو يقترب منه حتى توقف على بضع درجات منه وقال بحماس:

- إيه اللي وقفك، كمل نزول.

- إنت نزلت هنا قبل كده؟

- مفيش وقت، انزل الدرجات لحد ما توصل لنهاية السلم، ما تتحركش لثواني، هاتحس بسخونة في جسمك وبعديها خلاص.

- يعني إيه؟ ليه كل ده؟

- المكان لازم يتعرف عليك إنك من نسل (أبو خطوة)، الضوء اللي خليتك تغمي عينك بسببه بيفحص جسمك و...

قاطعه (عمر) مشدوهًا:

- وفيه طريقة فحص تانية تحت لجسمي.. بس إزاي؟ مفيش أي جن هنا؟ والمقابر اللي بتستخدم الطريقة دي لازم الجن يكون...

- غبي.. هنا مش قصة جن وعفاريت، هنا تكنولوجيا

متطورة أجدادك كانوا عارفينها من آلاف السنين، الوقت بيجري مننا، لو ماكملتش نزول بسرعة علشان تتفحص المكان هاياخد وضع دفاعي وهايعتبر إنك حصللك حاجة وهيقفل نفسه واحتمال إحنا الاتنين نموت.

بدّل (عمر) نظراته بين (أليكسندر) ودرجات السلم والكرات الزجاجية البيضاء التي تنير له طريق النزول، تصارعت في نفسه الخواطر ما بين الخوف من هذا الرجل وشعوره الطبيعي الذي نما عنده مع الوقت بالحذر من كل الناس، وبين فضوله تجاه هذا المنزل والذي كان قد نجح في كبحه منذ سنوات طويلة لكنه عاد ليطفو على السطح بقوة وسط هذه الأحداث.

اختار اتباع فضوله وتنحية حذره وهو يهبط وقطرات عرقه تتساقط على الدرجات التي غمرها التراب حتى أصبح لا يدري أهذا العرق من توتُّره أم من شعوره بالدفء الذي يزيد مع كل خطوة لأسفل، لقد جرب إحساسًا مشابهًا في غرفة الساونا، ولكنه لم يكن بمثل هذا القلق.

أكمل عد الدرجات حتى وصل إلى الدرجة التسعين وقدمه تشعر بالأرض المنبسطة فتوقف والظلام يحيط به والرائحة الآن أصبحت كرائحة التراب المختلط برائحة عرقه، تلك اللحظة

أظلمت الكرات البيضاء وعاد الشعر ينتصب على يديه، حتى إن شعيرات رأسه بدأت هي الأخرى في الانتصاب، هذه المرة شعر بالغثيان، ودفء جديد يغمره، لا ليس شعورًا خارجيًا كالذي اختبره منذ قليل، هذا الدفء مختلف، إنه ينبع من داخل أعضائه، كأن جسده من الداخل يشتعل، الدفء يتحول لنار حقيقية داخله حاول معها التماسك، خلايا أعصابه تحترق، شعر رأسه وذقنه ينتصب بشكل كامل، أصبح تنفسه أكثر صعوبة، في لحظة توقف كل شيء كأن أحدهم نزع القابس من فيشة الكهرباء.. كل الألم الداخلي توقف ولم يبقَ سوى الدفء العادي الذي أصبح الآن كمكيف الهواء بالنسبة لما شعر به سابقًا.

هل حان الوقت للتحرك للأمام.. كذا فكر وعيناه تحاولان التأقلم على الظلام، وكأن المكان يعلم بخواطره، أضاءت عشرات وربما المئات من الكرات الزجاجية بضوئها الأبيض على الجدران من أمامه، ظهرت معالم المكان الذي يقف فيه.. جدرات عالية تصل لارتفاع ثلاثة طوابق مليئة بتلك الكرات، أرض حجرية ممهدة ومصقولة لكن مليئة بالأتربة، على بُعد ثلاثين مترًا هناك ممر يرتفع درجات عن مستوى الأرض، كرة سوداء اللون ضخمة تبرز من أحد الجدران ويظهر منتصفها فقط.

خطر بباله أن هذا التصميم رآه من قبل، نعم.. لقد أدخله أحد أصدقائه من المهندسين المتخصصين في الترميمات الأثرية إلى مقبرة العجل (أبيس) بمنطقة (سقارة) أثناء أعمال ترميمها، التصميم مشابه جدًا، ولكن ما أقلقه هو ذلك الرسم أعلى مدخل الممر، رسم على الطريقة الفرعونية تآكلت ألوانه لكنه واضح لرجل يقف وخلفه جناحان أضخم منه بمراحل، وتحته رسمت رموز تشبه الكتابة الهيروغليفية لكنه لم يستطع قراءتها، هو ليس خبيرًا بتلك الرموز لكنه تعلَّم الكثير واكتسب خبرة أكثر في قراءتها أو على الأقل تحديد نوع النَّص إن كان نصًا دينيًا أو يؤرخ لإنجاز أو يحكي قصة، كما يستطيع تمييز طُرُق الكتابة المميزة لمعظم الأسرات المصرية القديمة، لكن تلك الرموز أشبه برموز عصر الأسرة الاولى أو لشيء قبله، هناك رموز لأشياء لم يقابلها من قبل.

صوت خطوات (أليسكندر) يأتي من أعلى درجات السلم وهو يهبطه بسرعة ويقترب منه، فكر (عمر) في أنه حان الوقت ليدخل ذلك الممر، لكن عينيه تصلبتا على مدخل الممر الذي تراصت عليه الكرات الزجاجية المضيئة، لأنه من داخل الممر هناك رجل يأتي متشح بالظلال التي يصنعها الضوء الأبيض وتسقط على وجهه فلا تظهر تفاصيله.

هل هو رجلٌ أم أنه خيال (عمر)، السبب كان في جسد الرجل الذي كان مهزوزًا، كأنك تشاهد التلفزيون والهوائي مهتز فتهتز الشخصيات داخل الفيلم أو المسلسل لثوانٍ ثم تعود لطبيعتها، هذا ما رآه في الرجل، كل ما حوله ثابت وهو الذي يهتز ثم يعود طبيعيًا، هو ينظر للرجل والرجل يبادله النظرات برغم أن (عمر) لم يرَ تفاصيل وجهه.

سمع (عمر) صوتًا من خلفه رن لمرة واحدة، يشبه صوت الرصاصة المكتومة، أحس ببرودة تغزو منتصف ظهره، اتسعت عيناه فزعًا وشهق وقد اقتحم الألم أعصابه دفعة واحدة بجانب إدراكه لما حدث، لقد أطلق عليه (أليكسندر) الرصاص ليقتله بعد إتمام مهمته والتي كانت إدخاله لهذا المكان.. حاول أن ينظر خلفه لكن قدمه فشلت في حمله وسقط على وجهه والتراب يتطاير حوله إثر اصطدامه بالأرض.

من خلفه يأتي صوت (أليسكندر) يقول كلمات بالروسية بلهجة باردة.. خطر بعقله أنها باردة لأن كل اللغة الروسية تعطي نفس الشعور على الأذن، وساخرة لأن الجميع يفهم السخرية إن قيلت بأي لغة، أو ربما للضحكات التي تخللت عباراته، رفع هنا رأسه للأعلى فوجد الرجل الذي يأتي من الممر قد اقترب منه وبدأت ملامحه تتضح، في نفس الوقت

صوت خطوات (أليكسندر) يتوقف عن نزول الدرجات، ويعاود الصعود للأعلى، والرجل المتشح بالظلام يقترب أكثر منه، مع كل خطوة يقتربها الرجل يتأكد (عمر) أن الرجل يهتز هو ذاته، ملامحه تظهر ببطء شديد، ومن الأعلى يسمع صوت (أليكسندر) وهو يقول بانتصار بالعربية:

- كنت عارف إن (عمر) معاه...

اختفى صوت (أليكسندر) لثانية وهو يشهق ويقول مستنكرًا:

- (جابر)!!

هنا اقترب الرجل أكثر والذي كان يرتدي ملابس عصرية سوداء، اقترب وجثا على ركبتيه وقرب وجهه من وجه (عمر) فظهرت شخصيته، إنه (جعفر)!!!، مدَّ يده يربت بها على كتف (عمر) الخائف المندهش وهو يقول بنبرات رخيمة:

- ماتخافش.. مش هاخليك تموت هنا، هاصلح كل حاجة.

تحامل (عمر) على نفسه وهو يقول بنبرات لاهثة:

- أنا سايبك.. فوق.. إنت.. إزاي نزلت هنا؟

ابتسم (جعفر) وهو ينهض وينظر لدرجات السلم وصوت (جعفر) الآخر يأتي من الأعلى عاليًا يردد تعويذة، نظر (جعفر) ثانية لعمر وقال بابتسامة على طرف شفتيه:

- (جعفر) فوق دلوقت بيردد قسم (زكاروت) اللي إنت علمتهوله، فاكر إنه هاينفع هنا، و(أليكسندر) هاينزل السلم جري، تعرف يا (عمر) إن اللي بيحصل دلوقت شبه الحكاية الحقيقية، الفرق إنك بتموت لكني هاديك فرصة تانية.

قال (جعفر) عبارته وابتسامته تتسع و(عمر) يسمع من الأعلى صوت قسم (زكاروت) يردده (جعفر) بسرعة والمكان يهتز من حوله كأنها هزة أرضية بسيطة أو ربما شعوره بالدوار يزداد بسبب الطلقة المستقرة بظهره، نهض (جعفر) الجالس أمامه من على ركبتيه وجسده يهتز ثانية وهو يسير مبتعدًا، وصوت (أليكسندر) يأتي من الأعلى يصرخ بالروسية ثم يقول بالعربية:

- (جابر) إزاي شكلك لسه صغير كأني.. كأني شايفك من 40 سنة!!!

فكر (عمر) وهو ينظر لجعفر السائر مبتعدًا من أمامه أنه مختلف عن (جعفر) الذي يعرفه فعلًا، بغض النظر عن ملابسه تامة السواد إلا أنه أكثر ثقة وقوة نفسية منه، كما أن وجهه به بعض التجاعيد، اهتز المكان ثانية وهو يشاهد (جعفر) يدخل ممرًا جانبيًا ويخرج حاملًا عباءة سوداء لم يتبينها، لا لم يخرج (جعفر) من الممر بل ظهر فجأة كأنه انتقل بسرعة الضوء، وفعلًا اختفى (جعفر) ثانية وظهر أمامه في أقل من ثانية وهو

يحمل بيده العباءة السوداء والتي اكتشف (عمر) أنها ضخمة بشكل مبالغ فيه لدرجة أن (جعفر) لف نفسه بها ورماها على (عمر) الذي شعر بملمسها الذي يشبه النار، صرخ (عمر) من لسعة العباءة واختفى الاثنان في نفس لحظة تشقق السلم الحجري المؤدي للقاعة وسقوط أحجار من أعلى السلم ومعها يسقط (أليكسندر) متدحرجًا حتى دخل القاعة وهو يصيح بالروسية، فجأة ظهر (جعفر) بجانب (أليكسندر) الواقع أرضًا والذي أجفل وهو ينظر له مرعوبًا من ظهوره المفاجئ والعباءة السوداء المتلفح بها.

وبرغم أنه ما زال يحمل مسدسه بيديه إلا أنه ألقاه على الأرض وهو ينظر لجعفر الواقف أمامه ويقول بالعربية:

- إيه اللي بيحصل يا (جابر)؟

في نفس الوقت نزل (جعفر) الآخر درجات السلم وآثار أتربة وسحاجات وجروح على وجهه من تساقط أحجار السلم وهو يكمل ترديد كلماته لينهدم المكان لكنه توقف فجأة متحجرًا بموضعه مما رآه، و (أليكسندر) يحرك عينيه بينهما بذهولٍ ولولا اختلاف ملابسهما لاعتقد أنه يتخيل.. مرت فترة صامتة تحرك بعدها (جعفر) الحامل للعباءة وهو يلفها حول جسده ثانية قائلًا بسخرية:

- آسف بس الموقف ده اتكرر كتير وبقى ممل أوي ومضطر أبدأ.

لف طرف العباءة الباقي على (أليكسندر) الذي رفع يده اليمنى بطريقة لا إرادية محاولًا الدفع عن وجهه، والعباءة تغطيه وصرخة سريعة تفلت منه قبل أن يختفيا الاثنان ويعود (جعفر) ذو العباءة ثانية بعدها بثانيتين ليظهر بنفس موضعه ويخلع العباءة عن جسده وهو يطبقها على يديه و(جعفر) الآخر يقترب منه ببطء يؤخر قدمًا ويقدم الأخرى بينما (جعفر) ذو العباءة يسير ناحية ممر جانبي في القاعة.

(جعفر) الآخر أكمل سيره ببطء والعرق يسيل من جسده من دفء القاعة حتى توقف أمام الممر ليتراجع خطوة إلى الوراء وهو ينظر إلى مقعد ضخم من المعدن مزدان بزخارف ملونة نباتية يكثر بها رسوم نبات البردي، مقعد قريب للمقاعد المصرية القديمة التي شاهد (جعفر) صورَها من قبل لكنها في نفس الوقت لا يمكنك أن تقول أنها فرعونية بنفس راضية، كأنها تجمع بين صفات الحضارة المصرية القديمة وحضارة أقدم منها أو مختلفة عنها، لكن ما جعل (جعفر) الآخر يعود خطوةً للوراء ليس المقعد بل مَنْ كان يجلس عليه.

جثة محنطة لرجل يجلس بوضعية مسترخية ولفائف الكتان

تحيط به بالكامل وقد اصفرَّ لونُها، والغريب أن رأس الجثة مغطى بقناعٍ مثل قناع (توت عنخ آمون) لكنه قناع أسود اللون وبلا ملامح، المقعد الكبير كان في بداية الممر كأنه يحرسه، ألقى نظرة خلف المقعد لبقية الممر المرصوف بحجارة صفراء متلاصقة ومضاء بنفس طريقة إضاءة بقية المكان بتلك الكرات التي تشع نورًا غريبًا، وهناك غرفتان على جانبي الممر، تصاعد صوت (جعفر) ذو العباءة من أول غرفة وهو يقول:

- مش وقت اندهاش خالص أنا مش فاضي يا (جعفر)، أيوه أنا إنت، إنت مش بتتخيل

انتهت العبارة وخرج (جعفر) من الغرفة إلى الممر وهو يحمل العباءة وطرفها يلامس الأرض حتى توقف خلف المقعد ثم رفع العباءة في الهواء فاردًا إياها ليغطي بها الجثة المحنطة على المقعد حتى لم يظهر منها شيء وهو يربت بيديه على المقعد ويقول:

- دا الكاهن اللي أجدادنا المصريين حطوه علشان يحرس المقبرة، يحرس مدخل العالم اللي سماه (ابن عربي) بأرض السمسمة.

ثم ابتسم وهو ينظر لجعفر الآخر الذي تملك الذهول منه وأكمل قائلًا:

- اسم يضحك مش كده؟ الكاهن ده نسله يوصل لعمر أبو خطوة صاحبك اللي علمك رصد المقابر، أيام الفاطميين كانوا بيسموا اللي من نسل الكاهن ده بأصحاب الخطوة، بعد كده الاسم لزق فيهم وبقوا عيلة أبو خطوة.

(جعفر) الآخر رفع يده يمسح بعض ما استطاع من العرق عن عينيه وهو يقول بصوت كالهمهات:

- (عمر) ... فين؟

- ماتخافش، أنا خرجته بره البيت هو و(أليكسندر) قبل يومين من دلوقت، (عمر) كان المفروض يموت بس أنا بحبه لأنه علمني كتير أوي، وطالما أنا بحبه يبقى إنت كمان بتحبه.

- إنت مين؟

- أنا هو إنت بس من مكان تاني، بعد تاني، عالم تاني زي العالم بتاعك، ومهمتي إني أخليك تعيش حياة أفضل، وزي ما عملت مع (عمر) و(أليكسندر) هاعمل معاك.

- إنت عملت إيه فيهم؟

- بلاش غباء، قلتلك رجعتهم بالزمن يومين قبل النهارده، وخليتهم يفقدوا الذاكرة علشان ماتحصلش مقابلة بينهم ويدخلوا البيت ويتقتل (عمر)، وإنت كمان هارجعك لنفس وقتهم وهاخليك تنسى معظم الحاجات وهافصل خدمة الجن

بتاعتك عنك علشان محدش فيهم يفكرك باللي حصل، عايزك تحاول تكمل حياتك وترجع لصفاء اللي إنت بتحبها، ممكن اللي حواليك يفتكروك مجنون شوية بس ده قدرك، لحد ما هايجيلك واحد اسمه (جابر عبد السيد) عايزك تصدّقه وتنفذ كل اللي هايطلبه منك.

تراجع (جعفر) الآخر خطوتين إلى الوراء خائفًا و (جعفر) ذو العباءة يبتسم قائلًا:

- ماتحاولش تهرب، وامسك نفسك علشان العباية اللي هاغطيك بيها هتحسسك إنك في فرن.

فجأة سحب العباءة من على الجثة واختفى هو والعباء ثم عاود الظهور أمام (جعفر) الآخر وهو يحيطه بها ويختفي الاثنان.

***

أمام منزل (أبو خطوة) على الجهة المقابلة من الطريق السريع المخصَّص للسيارات وفي شقة مُطِلَّة على المنزل بعمارة شاهقة جلس الرجلان المكلَّفان بمراقبة منزل (أبو خطوة) من النافذة وأحدهم يغلبه النوم وهو يقول للآخر:

- مش قادر أنا هيغمى عليا، إحنا دلوقت الساعة 3 بعد نص الليل ومفيش حاجة حصلت.

نظر الرجل الثاني في التلسكوب المقرَّب المنصوب أمام النافذة وهو يقول بعصبية:

- عايز تنام تقوم تعمل لنفسك قهوة.. وابقى اعملّي معاك، بس نوم مفيش، إنسى، (جابر) باشا قالّنا إن النهارده من النهار لحد بكرة الصبح عنينا ماتغفلش ثانية عن البيت، ونبلغه بأي حاجة تحصل في ساعتها بالتليفون.

- أنا زهقت من القعدة كده قدام البيت كل يوم.

- مش بتاخد مرتبك ومكافأة كمان لو بلغت بحاجة، عايز إيه تاني؟

- جرى إيه يا بني إنت معايا والا مع...

قطع الرجل عبارته عندما شعر بضوءٍ أبيض قوي يأتي من الشارع، نهض من مقعده واقترب من النافذة يدقق من خلف زجاجها في الشارع، فوجد ضوءًا أبيض يشع من نقطة أمام بوابة المنزل وأبخرة بيضاء تدور عكس عقارب الساعة.

- بسم الله الرحمن الرحيم، إيه ده؟

ردَّ عليه الرجل الجالس خلف التلسكوب:

- مش قُلتلك فيه حاجة هتحصل.

اختفت الأبخرة وانطفأ الضوء ولكن ظهر جسد (جعفر)

ملقى على وجهه أمام المنزل وملابسه بها بعض الحروق وقطعة منها يظهر بها لهب ناري انطفأ بعد اشتعاله بثوانٍ.

- إيه ده جثة؟

قالها الرجل الواقف خلف زجاج النافذة وهو يلصق وجهه بالزجاج بينها الرجل الآخر ينهض من خلف التلسكوب وهو يذهب لمفكرته ويكتب بها التاريخ والساعة والدقيقة ثم يصف ما رآه، ثم أخرج هاتفه المحمول وطلب رقمًا وانتظر حتى رد عليه الطرف الآخر.

- لا مؤاخذة يا (جابر) باشا على.. أيوه حصل حاجة حالًا، فيه نور أبيض طلع من قدام البيت وانطفى ومكانه لقينا جثة شاب، طب نعمل إيه؟ أبلغ مديرية أمن القليوبية؟ على فكرة يا باشا أنا أعرف ظابط في قسم القناطر الخيرية هايبقى أسرع.. آسف يا باشا هاعمل اللي حضرتك قلت عليه.. تحت أمرك.. في رعاية الله.

أغلق الرجل الخط بأدب شديد وكأن محدثه يراه في هذه اللحظة ويريد أن يظهر له الاحترام والطاعة، بينها الرجل الآخر يقول بلهفة:

- تعالى بص كده، أنا شايف حاجة غريبة.

وقف الاثنان يحدقان في الجثة الراقدة أمام المنزل، ولكن

عند باب المنزل الداخلي خيل إليهما أنهما يريان شخصًا يرتدي السواد، الظلام منع دقة المشاهدة لكن هذا الشخص اختفى فجأة أمام بوابة المنزل لكن ظهر ثانية وكأنه ينظر لهم ثم اختفى نهائيًا.

***

نهض (عمر أبو خطوة) من على فراشه منتفضًا ينظر حوله لظلام غرفة نومه حتى سمع صوت زوجته يأتي من جانبه على الفراش تسأله عما به.

- أنا فين؟

نهضت هي وأضاءت مصباحًا صغيرًا على الكومود بجوار الفراش أجبر (عمر) على غلق عينيه من الضوء وهي تفتح عينيها بتثاقل وتسأله:

- إنت كنت بتحلم؟

- لا.. أنا.. أنا كنت في بيت جدي.

- وحلمت بإيه؟

فلتت منه صرخة بعصبية وهو يخبرها وجسده ينتفض:

- مفيش حلم.. أنا.. أنا كنت في بيت جدي و.. ومش فاكر، لا أنا فاكر.

فتحت هي عينيها مندهشة من نبرة صوته وربتت على جسده بحنانٍ وهي تقرأ المعوذتين، أما هو فأغمض عينيه محاولًا تذكُّر ما الذي دار بعقله، هناك اسم يتردد داخل ذاكرته.. (جعفر)، وهناك مشاهد وصور وروائح يحملها لكنها متفرِّقة وكلما حاول تبيُّنَها أكثر كلما هربت من عقله، هناك منزل جده وهو يحفر في أرض غرفته، وهناك شاب يعلم تمام العلم أن اسمه (جعفر)، وهناك بعض الأتربة وصوت رصاص وألم بظهره، فتح عينيه وبلل شفتيه بلسانه وهو ينظر لزوجته ويقول بتساؤل:

- (جعفر).

ظهر على زوجته بعض الغباء للحظات لكنها تنهدت براحة وهي تقول:

- آه إنت شُفت اللي اسمه (جعفر) في حلم تاني؟

- إنتي تعرفي الشخص ده؟

- أعرف مين، هو مش إنت بقالك سنة بتحلم بواحد بيجيلك اسمه (جعفر) وكنت بتشوف معاه جدك (أبو خطوة).

- أنا كنت باحلم بواحد اسمه (جعفر)؟

قالها (عمر) بدهشة انتقلت لزوجته وهي تنظر له غير مصدقة وتقول:

- فيه إيه يا (عمر) دا إنت كنت مصدَّع راسي بالأحلام دي كأنها مسلسل عربي، دا حتى آخر حلم حكيتلي عنه إنك شُفته هايقابلك في جامع الحسين.

تأمل وجهها كأنه يتوقع أن تكون كلماتها مجرد مزحة ثم نهض من الفراش وارتدى خُفَّيه وزوجته تسأله عن وجهته لكنه خرج من الغرفة مغلِقًا بابها وراءه وهو يسير جريًا ناحية غرفة مكتبه في الطابق السفلي، دخلها وجلس على أقرب مقعد له والظلام يحيط بالغرفة وهو يحاول تجميع أفكاره عن (جعفر) هذا الذي تقول زوجته أنه حلم به كثيرًا وهو لا يعرفه ومتأكد أنه يراه لأول مرة في خياله الآن، أو بشكل أدق يشعر أنه لا يتخيل بل هو يرى ما رأى من ذكرياته وهو ما أرعبه.

شعر بجفاف حلقه فبلل شفتيه ثانية وتنفَّس بعمقٍ وهو يقف وينظر في الظلام حوله مشبكًا يديه خلف ظهره كأنه قائد عسكري، أغمض عينيه وترك ذكرياته تنساب، (جعفر) يظهر بعقله كصورة ضبابية يرتدي ملابس عادية؛ سروالاً وقميصًا باللون الأسود، لكن صورته ترتعش وتبهت ويشعر بالخوف عند تخيل تلك الصورة.. تختفي صورة (جعفر) وتتغير ملابسه لتصبح ملابس بألوان أخرى، يرى نفسه يجلس معه داخل مكتبه ومعهم (هيثم) أحد رجاله الذين يحضرون له

عمليات فتح المقابر، الذكرى مشوهة لكنه يرى (هيثم) يخبره بمنزل بأسفله مقبرة عليها مشاكل ويريدون فتحها، نعم هو الآن يتذكر مقابلة حقيقية عن هذا المنزل لكن لا يتذكر وجود (جعفر) بها، هل يتخيل، تختفي الصورة بعقله وتأتي محلها صورة أخرى له يقف بجانب (جعفر) داخل مقبرة غريبة وحولهم أناس لا يعرفهم يتصارعون معه ثم (جعفر) هذا يتلو قسم (زكاروت) فتتهدم جدران المقبرة.

انقطع سيل الذكريات فجأة من عقله ففتح عينيه في ظلام الغرفة وقد قرَّر أن يستدعي خدَمَه من الجان ليسألهم، اعتمد على حاسته بمعرفة مواضع غرفة مكتبه وهو يذهب لزر الإضاءة ويشعل الضوء لينير مكتبه، نظر بجانبه وهو يقول بملل:

- بحق دعوة (سليمان) وبنور ساطع قلب جماداته إنه من (سليمان) وإنه بسم الله الرحمن الرحيم أحضروا في وقتي وساعتي يا من دخلت بطاعتي، دعوة مجابة بالوقت والساعة.

قال عبارته وهو يمسح بيده على رأسِه ليفيق من آثار النوم وعاد للنظر بجانبه فلم يرَ شيئًا، أعاد العبارة مرة أخرى فكانت نفس النتيجة، تبدل وجهه وطارت بقايا النوم من عقله وهو يجري ناحية مكتبه ويبحث عن أحد الروابط بينه وبين خدمه

في أدراج المكتب وهو يفكر أنه لم يعد يستخدمها منذ سنين طويلة، فتش في الأدراج بجنون حتى وجد سبيكة فضية رسم عليها

أزاح من على السبيكة بضع ذرات تراب تكونت عليها من قلة الاهتمام بها برغم حفظها في علبة صغيرة، كما انتشر الصدأ بها في أكثر من موضع، وضعها على سطح المكتب وجلس بجانبها مفكرًا أنه لم يَحتَجْ إليها منذ صنع عهوده فهو يقرأ قسم جلب بسيط ليظهر له خدمه من الجن لأنهم يرافقونه في أغلب الأوقات، لكنه طرد عن فكره أن هناك مصيبة أو مشكلة وابتلع ريقه بصعوبة وهو يضع أصابعه على السبيكة ويبدأ باستدعاء خدمته ليظهر له أحدهم:

- بقسم منير في هيكل (سليمان) أخذتموه عند الباب الكبير أبدأ بثناء وجلاء على مسير الأكوان وخالق الأزمان بالعزة والسلطان، بهيبة مكلم الثعبان وخاضع الجان، الضارب بالسيفين الطاعن بالرمحين، ملوك الأيام يأخذون حذرَنَا وزجرنا من عهدي مع (روقيائيل) وأعوانه بألا يمسوا عهدي أنا (عمر) بن (فضل

الدين) بن (سيد) عهدًا إلى جدنا الأكبر (أبو خطوة) وبرجال من الجان أتوا من أصلاب أعوان أجدادي بداعج ميعوج وكلكيائيل وسيقائيل، مالك إيك أت تعنين، اظهروا وافتحوا الحجاب.

توقف عن الكلام وهو ينظر حوله فلا يرى نتيجة فأكمل بصوت أعلى هو أقرب إلى الصراخ:

- بشينو وبشلومو عليخو بشينو وبشلومو عليخو، ادخو ليبو ودن لبيتو.. هذا عهدي وتحيط بكم الأسماء تكبلكم بدعوى الجلجوتية..

توقف عن تكملة العبارة بعدما التقطت عيناه حركة مرتعشة لورقة صغيرة على المكتب، رفع يده من على السبيكة الفضية ووضعها على الورقة ليثبتها لكنه شعر بيده تصطدم بيد مشعرة مخلبية، سحب يده ملسوعًا فوجد أمام المكتب يظهر من اللا شيء جني قصير، نحيل، برأس ضخمة وعينين مسحوبتين وفم بارز والشعر ينتشر بجسده.. تعود (عمر) أن يقوم الجان المرافقون له بإظهار الجان الآخرين له لا أن يتشكلوا بشكل مادي في الأوقات العادية، لكنه بمجرد تدقيقه للنظر وجد جسد الجني يمتلئ بالحروق الكثيفة الغريبة التي لم يشاهد مثلها، فتح الجني فمه ليتكلم لكن خرج منه صوت أشبه بالصراخ تبعه كلمة واحدة:

- (جعفر)..

ارتعشت شفتا (عمر) بعد أن ردد اسم (جعفر)، استند الجني

على حافة المكتب وهو يرفع يده المخلبية اليمنى باتجاه رأس (عمر) الذي فهم ما يريده الجني من خدمته ويريد أن يضع يده على رأسه ليفتح له الرؤيا ليرى بقية الجان المتواجدين بالمكان، لم يترك نفسه للدهشة وجرى ناحية الجني الظاهر عليه اقترابه من الموت وقرب رأسه منه ليضع الجني يده قبل أن يختفي على رأس (عمر) الذي شعر بألمٍ بسيطٍ تعوَّد عليه طوال حياته أعلى عينيه ثم انفتحت الرؤية من حوله وألوان الموجودات تتحول إلى اللون الرمادي.

كاد أن يصرخ فزعًا مما شاهده، جثث خدامه من الجان ملقاة حوله في كل مكان وكلهم يعانون من الحروق، لم يشاهد كل هذا العدد من الجان مقتولًا من قبل برغم كثرة خبراته، سمع صوت الجني في أذنه ضعيفًا يقول بوهن شديد:

- (جعفر) جابك هنا بعد يومين.

تركيب الجملة لم يفهمه (عمر) لكنه صرخ:

- مين اللي قتلكم؟

- (جعفر).

اختفت الرؤية تدريجيًا وعاد ليرى بشكل طبيعي ففهم أن الجني مات، في نفس اللحظة سمع من بعيد صوت جرس باب شقته يرن بإلحاح، جرى ناحية باب المكتب يفتحه وهو يخرج منه جريًا متجهًا إلى صالة استقبال شقته والجرس يرن بجنون، رأى

خادمته تهرع ناحية الباب لتفتحه وهي تزيل آثار النوم من على وجهها لكنه نهرها وأمرها بالانصراف وهو يقف أمام الباب وينظر من عينه السحرية، رأى رجلًا عجوزًا يقف متململًا وهو ينظر لساعته.. في الأوقات العادية كان (عمر) وبسبب خدمته من الجان يشعر بقوة لا حدود لها لكنه الآن خائف من فتح الباب لعجوز متهالك.

وكأن العجوز عرف أن (عمر) يقف خلف الباب فاعتدل وهو ينظر للعين السحرية وهو يقول:

- أنا (جابر عبد السيد)، افتح يا (عمر) ماتخافش أنا جايلك علشان أفهمك إيه اللي بيحصلك.

- تعرفني منين؟

قالها (عمر) بصوت حاول أن يجعله متماسكًا لكنه خرج مرتعشًا.

- أعرفك من ساعة ما اتولدت، وجاي علشان أكلمك على (جعفر).

فتح الباب بحذرٍ وهو يتأمل (جابر) بعين خبيرة يحاول تقييمه حتى دلف هذا الأخير داخل الشقة ببساطة وهو يتثاءب ويقول:

- معلش يا ابني بس أصلي سهران وأنا متعود أنام بدري.. ممكن نتكلم في أوضة المكتب.

أشار له (عمر) ناحية الغرفة المفتوحة ليتقدمه (جابر) إليها

حتى دخلها وجلس على إحدى المقاعد و(عمر) يدخل من ورائه ويغلق الباب لكنه تصلَّب في موضعه عندما سمع صوت (جابر) يقول بشكل تقريري:

- الجن اللي بيخدموك اتقتلوا أو مش عارف تتواصل معاهم صح؟

نظر له (عمر) بوجه غاضبٍ وصوت تنفُّسه يعلو وهو يقترب منه بينما (جابر) تظهر الدهشة على ملامحه وهو يقول بسخرية:

- إيه يا ابني وَش الدراما اللي إنت عامله ده، أنا عارفك من زمان مابتحبش التمثيل، خُد الموضوع ببساطة أنا جاي أفهمك.

توقف (عمر) عن التقدم وتراجع خطوتين ليجلس هو الآخر على مقعد ينظر لجابر محاولًا الحفاظ على تعابير وجهه.

- وحضرتك يا أستاذ (جابر) تعرفني منين؟

- من قبل ما تتولد وبعد ما اتولدت وفي كل وقت.

- أنا مش فايق أسمع تخاريف العواجيز ده.

- طب يا سيدي اسمع.. إنت كنت تعرف واحد اسمه (جعفر) لكنك مش هتفتكر أي حاجة عنه، اللي حواليك هايفتكروه لكن إنت لا، مثلًا (هيثم) الراجل بتاعك.. إلا هو إيه أخباره دلوقت؟

- إنت تعرف (هيثم) كمان؟

قالها (عمر) بسخرية محاولًا الظهور بمظهر المسيطر على

الموقف برغم تخبطه من الداخل فابتسم له (جابر) وهو يكمل:

- طبعًا أعرفه، دا حبيبي، هو كان هايوديك في داهية أكتر من مرة بس طيب، أهو (هيثم) شافك مع (جعفر)، ولو اتصلت بيه وسألته هايأكدلك كلامي، ولو سألته على (أليكسندر).

قاطعه (عمر) وهو يميل بجسده للأمام ويقول:

- إنت تعرف (أليكسندر)؟

- إنت فاكر عنه إيه؟

- مش هو ده اللي بيكلمني بقاله فترة عايز يدخل بيت جدي.

قال (عمر) عبارته وتوقف فجأة وخياله يريه مشاهد يعتقد أنه يرى نفسه يدخل منزل (أبو خطوة) مع رجل أوربي الهيئة.

- إنت دخلت معاه البيت يا (عمر).. وكان معاكم (جعفر).

نفض (عمر) الخيالات عن رأسه وهو يقول:

- أنا مادخلتش البيت مع حد.

- دخلت وكمان فتحت البوابة اللي بتنزل لتحت.

- إنت بتتكلم بثقة كده ليه؟

تغيرت نبرة (جابر) وأصبحت حادة وهو يقول:

- إنت مش هتصدق اللي هقوله لكن إنت دخلت البيت وكنت هتموت فيه لكنك رجعت بالزمن لأيام، يعني رجعت النهارده و(جعفر) اللي جوه البيت مسح ذكريات منك علشان

ماتحاولش تدور جوه البيت تاني وتبوظ خطته، وأكيد بتجيلك ذكريات وهاتجيلك أحلام من حياتك السابقة تحاول تفكرك إنت مين وإيه الأحداث الأصلية اللي عشتها، لكنها هتفضل جواك ومش هتفهم منها حاجة.

- أنا مش فاهم حاجة منك أساسًا.

- عنك ما فهمت.

قالها (جابر) ونهض فنهض (عمر) متحفزًا لكن (جابر) اتجه ناحية المكتب وبحث حتى وجد ورقة فارغة ثم أخرج من جيبه قلمًا وبدأ في رسم خطين متوازيين وكتب بجانب الخطين عام 2005، اقترب منه (عمر) ونظر للورقة لكن عينيه وقعتا بالمصادفة على يد (جابر) وذلك الخاتم المميز الذي يزين أحد أصابعه.. لمعت عيناه وهو يتذكر هذا الخاتم الفضي وخاصة أن هناك كتابة بخط دقيق على فص الخاتم لا يمكن قراءتها إلا بعدسة مكبرة لكنه عرفها منذ وقوع عينيه عليها لأنها طلاسم استخدمتها عائلته وكل من تدرب تحت أيديهم في عالم الجان، لكن الخاتم نفسه كان متأكدًا من معرفته.

- إنت لابس خاتم عليه خدام من الجان؟

انتبه (جابر) للخاتم وقال بحرج:

- مافيهوش جن ولا حاجة، مش ده الخاتم الأصلي بتاعي، دا أنا عملته وأنا كبير في السن علشان يفكرني بنفسي.

- مش فاهمك بس الطلاسم اللي على الخاتم شبه..

قاطعه:

- طُظ.. المفروض ماكنتش أقابلك وأنا لابسه بس ذاكرتي بقت زي السمك البوري، ثم إنت كده كده مش هتفتكر حاجة، ركز بس في اللي هاقولهولك.

أشار للورقة وقال:

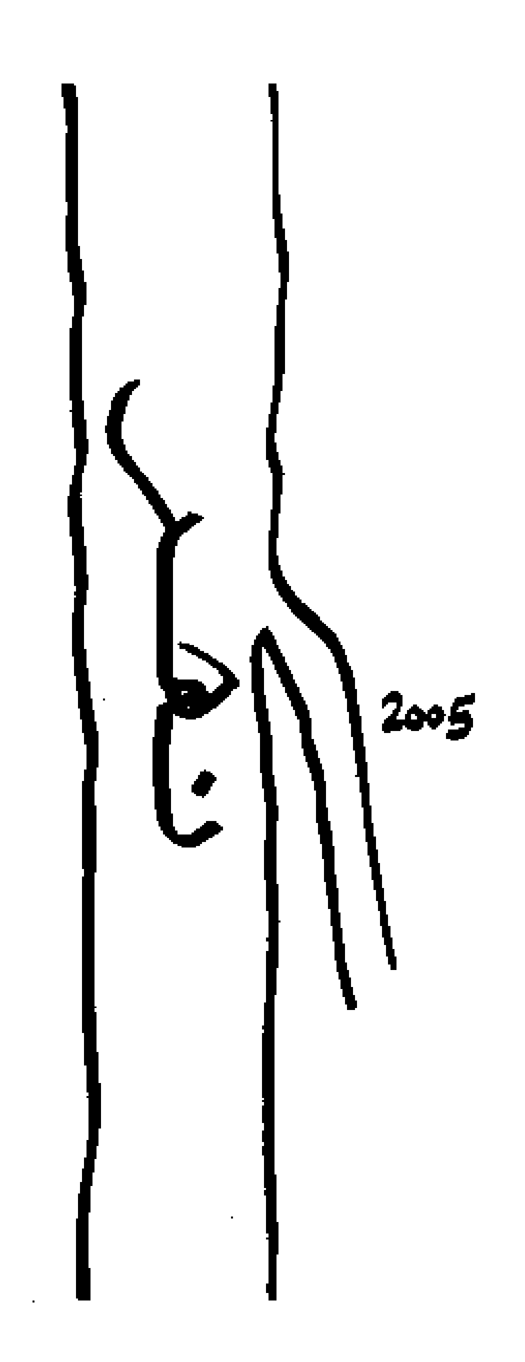
- اعتبر إن ده نهر النيل، عايز تتخيل إن حياتنا ماشية زي النهر ده بالظبط، وسنوات حياتك مكتوبة على ضفاف النهر زي السنة دي بالظبط، 2005، فاهمني؟

- هو إنت قلت حاجة علشان أفهم!

- بطل لماضة وركز، دلوقت لو تخيلنا إننا عملنا كده في النهر.

تبع عبارته بأن رسم فرعًا صغيرًا يخرج من النهر عند عام 2005 وهو يقول:

- إيه اللي إنت شايفه؟



- ترعة خارجة من النهار.

- ترعة !!.. ماشي نعتبرها ترعة، الترعة دي لو خرجت وفضلت ماشية بمحاذاة النهار هيحصلها إيه؟

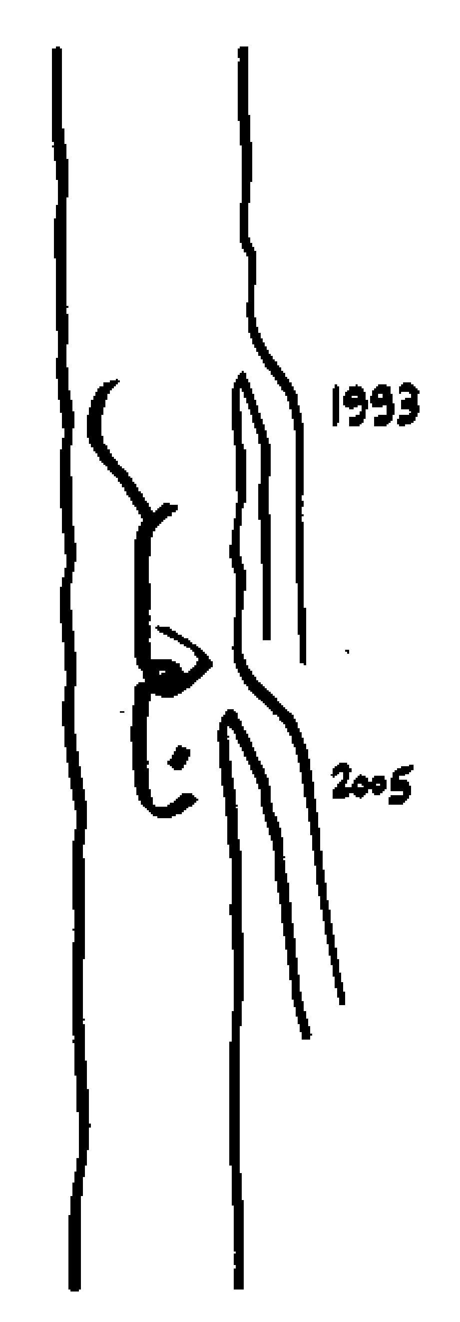
- مش عارف.

- الترعة مع الوقت مش هاتقدر تشق طريقها لوحدها

وهتقف عند نقطة معينة وهيحصلها جفاف مع الوقت، أو هاتنحرف ومسارها هايرجع نهر النيل تاني، يعني في كل الحالات الترعة اللي خرجت في 2005 مش هتأثر على مسار النهر مظبوط؟

- آه تمام.

- ده اللي حصلك وحصلي، إحنا في فرع من النهر، مجرد فرع لازم يختفي، عمره ما هيكون نهر لوحده، لكن لو تخيلت معايا اني عمقت الفرع أو الترعة زي ما إنت بتسميها وخرجت فرع تاني سنة 1993، الفرع ده هايلتحم مع الفرع بتاع سنة 2005 ويكون فرع قوي موازي للنيل، لكن برضو مش هنقدر نكون نهر كامل والمياه اللي جاية من المصب هاتفضل تروح معظمها في النهر الرئيسي.



- أنا زهقت من الفقرة الزراعية دي ممكن حضرتك تقولي إيه الحكاية.

- إحنا مش في زمنا الأصلي يا ابني، أنا وإنت وأهلك وكل اللي حواليك مجرد فرع من النهر، مش حقيقيين، عالم مؤقت بينهار كل مرة، والزمن بيرجّعنا تاني للنهر مهما طال الوقت.

- حضرتك مجنون؟

صرخ فيه (جابر):

- احترم نفسك يالا، جدك نفسه الله يرحمه كان مايقدرش يقول كلمة زي دي.

- حضرتك تعرف جدي؟

ألقى (جابر) بالورقة وعاد ليجلس على مقعده وهو يطرد آثار النوم من عينيه ويقول:

- أيوه يا سيدي، والمصيبة إني مش عارف أفهمك إزاي، بص يا (عمر) أنا هاعرفك شوية أسرار بس على شرط واحد، إنك تنفذ اللي هقولك عليه وتستنى لحد سنة 2007 علشان تعرف المهمة اللي المفروض تنفذها.

- مهمة هانفذها؟

- المهمة اللي إنت المفروض تعملها أصلًا، إنك تكون مكان (جعفر) وتنهي كل حاجة.

***

نزل (جابر) من العمارة التي يقطن بها (عمر) ليصطدم بابنه (سليمان) الذي ينتظره بجانب سيارته الملاكي والذي جلس في مقعد السائق ووالده يفتح باب السيارة ويجلس بجانبه.

- نرجع على البيت يا بابا.

- آه بسرعة.. تلاقي أمك ماسكة الشبشب ومستنياني، ولّا تلاقيها نامت أساسًا.

ابتسم (سليمان) بطرف فمه، لكن عينه تأثرت وهو يسعل ليتمكن من أن يقول:

- ماما ربنا يرحمها من سنة.

ابتسم (جابر) وهو يقول بمرح:

- ما أنا عارف، أنا مانسيتش، بس شبشب أمك محدش ينساه.

نظر بعدها أمامه وقد تجمدت الابتسامة على وجهه لدقيقة حتى ابتلع ريقه وهو يقول محاولًا الحفاظ على ابتسامته:

- مش عايز تسأل أنا كنت عند (عمر أبو خطوة) ليه؟

- لو إنت عايز هتحكيلي.

ساد الصمت في السيارة و(سليمان) يتحرك بها حتى قال له (جابر):

- صحيح أمك هي اللي ربتك لكن أنا ماكنتش قاعد طيشة، وعارفك وعارف اللي بيدور في بالك، ومتأكد إنك بتدور على اللي بعمله من ورايا بس مش هتوصل لحاجة لأنها حكاية معقدة.

- هو اسم ماما الحقيقي إيه؟

- (حنفي).

لم يضحك (سليمان) بل نظر لوالده الذي قال ببرودٍ:

- إنت مصمم تعرف كل حاجة.

- أنا عرفت حاجات لكن مافهمتهاش، أنا متأكد إن حضرتك غيرت اسمك في شبابك إنت وماما علشان تهربوا من حاجة، متأكد إن ليك صلة قرابة بـ...

- إنت ظابط بوليس فمش هتفهم في الحاجات اللي باعملها ولو فهمت هتبوظ كل حاجة، ولو فاكر نفسك لو سمعت اللي دار بيني وبين (عمر أبو خطوة) إنك هتوصل لحاجة تبقى عبيط.

تبع (جابر) عبارته بأن بحث في جيوب بذلته حتى أخرج قطعة بلاستيكية في حجم العملة المعدنية ووضعها على تابلوه السيارة وهو يقول لسليمان الذي شعر بالخجل:

- حاطط في جيب بدلتي البتاعة دي علشان تسجل عليها الحوار اللي هيدور من غير ما أعرف، أنا ماعرفتش هي بتشتغل إزاي فسيبتها في مدخل العمارة لحد ما أخلص.

- بابا.. أنا ما أقصدش.

قاطعه (جابر) ضاحكًا:

- ياد عيب دا أنا على قديمه أيام الخير كله، أيام ما كان جهاز التصنت جهاز تصنت بجد، كان شبه الميكروفون وبنخبيه جوه الحيطة، إنما الدنيا اتقلت بركتها وصغروا الأجهزة، على فكرة البتاع ده إنت مش جايبه من وزارة الداخلية دا صناعة أوروبية ومكتوب عليه كود تجاري، إنت خليت حد يشتريهولك من بره؟

- افهمني يا بابا، أنا خايف عليك علشان كده بحاول أتابعك.

- حاول براحتك ولو عرفت يبقى حقك، مش هالومك، لكن لو مشيت على كلامي هترتاح وتريح الكل، قولي أخبار (جعفر) إيه؟

- دلوقت زمانه في قسم القناطر وأنا بتابعه.

- وعيلة (الدهان) اللي في (أبو النور)؟

ظهر على وجه (سليمان) الحيرة كأنه يريد أن يخبر والده بشيء لكنه ينوي في نفس الوقت التراجع.

- قول يا (سليمان) لقيت إيه عن العيلة دي؟

قال (سليمان) بوجه بارد محاولًا كبت أسئلته التي قاربت على القفز من داخل رأسه.

- فيه محاضر في أرشيف أمن الدولة، وإذن نيابة بالقبض على واحد اسمه (عبد الفتاح الدهان) و(سيد أبو خطوة)، والتحقيقات فيها اسمك وإنك على صلة صداقة بالاتنين دول وبتزور قرية أبو النور بانتظام، وإنك...

قاطعه (جابر) بهدوء:

- دا كلام قديم من حوالي 30 سنة ومش مهم، أيوه أنا كنت أعرفهم وعلى صلة بيهم أنا عايز تراقب..

- يا بابا كفاية كده أنا زهقت، قولي فيه إيه؟

قالها (سليمان) بغضب وارتعاشة في نبراته فنظر له (جابر) بطرف عينيه وكاد أن يقول شيئًا لولا أن هاتف والده المحمول رن فردَّ عليه وهو يتحدث لشخص ما في الهاتف سائلًا إياه عن شخصيته، ظهر الخوف والرعب على ملامح (جابر) وهو يعتدل في جلسته، تنامى لمسامع (سليمان) صوت يأتي من سماعة الهاتف المحمول يأمر (جابر) بالعودة لمنزله، الغريب أن (جابر) ارتبك وهذا ما لم يرَه (سليمان) كثيرًا بحياته، حتى لون وجه (جابر) قد احمر وتنامت بضع حبات من العرق على وجهه وهو يردد برعب:

- أنا.. أنا جاي.. إوعى تمشي أنا جاي حالًا.

أغلق الخط وهو ينظر إلى (سليمان) ويأمره بأن يزيد من

سرعة السيارة ليصلوا للمنزل بأسرع وقت، نفذ (سليمان) الأمر وهو يلقي بنظره من وقت لآخر ناحية والده ليجده ينظر أمامه مفكرًا وعلامات ارتفاع الضغط تتجلى عليه حتى أن (سليمان) خاف من سؤاله عن محدثه على الهاتف معتمدًا على أنه سيعرف في النهاية واكتفى بسؤاله كل بضع دقائق عن حالته الصحية فيتلقى من والده بنبرة آلية:

- الحمد لله.

بعد أكثر من نصف ساعة اقتربت السيارة من المنزل و(جابر) يحرك عينيه بسرعة باحثًا عن شيئًا ما في الطريق الصحراوي الذي يطل عليه المنزل، حتى وصلت السيارة إلى بوابة المنزل الرئيسية و(جابر) يخرج جهاز فتح البوابة من جيبه ويضغط على زر فتح البوابة الضخمة، فجأة أمره (جابر) بأن يتوقف، ونزل من السيارة تاركًا (سليمان) حائرًا من كل هذا الغموض، حتى تابع هذا الأخير بعينيه والده وهو يسير بجانب المنزل حتى وقف أمام شاب في العشرينيات من عمره وجهه يغرق في الظلام لكنه تأكد بأنه لم يرَ هيئته من قبل، سمع صوت والده يقول صائحًا:

- إنت جيت تاني ليه؟ أنا باعمل كل اللي اتفقنا عليه.

- (عمر) عرف اللي مطلوب منه؟

قالها الشاب ببرودٍ وبصوت أجش لجابر الذي وقف أمامه، هنا لم يستطع (سليمان) الانتظار في سيارته فنزل منها وهو يتجه إلى والده الذي قال للشاب:

- أيوه، مافهمتوش كل حاجة لأنه مش هايفهم، بس ماتنساش إن ميعادنا في 2007 إيه اللي جابك السنة دي؟

هنا اقترب (سليمان) من والده المنفعل الواقف أمام الشاب الذي قال بنبرة لائمة:

- مش واثق فيك، إنت بتحاول تتحرك بره اتفاقنا.

كانت صورة الشاب اتضحت لسليمان ليجده شابًا في العشرينيات، ملابسه غير مهندمة تتلطخ ببقايا أتربة في بعض المواضع، وشعره يقول بأنه لم يتعرَّض للمياه منذ أيام برغم من محاولة تسريحه الفاشلة، تأكد (سليمان) بما لا يدع مجالًا للشك أنه لا يعرفه ولم يرَه من قبل؛ لذلك صرخ فيه صائحًا:

- فيه إيه ياد ما تتكلم مع دكتور (جابر) باحترام.

نظر له الشاب وتأمله من أخمص قدميه إلى أعلى رأسه ولم يرد عليه بل نظر لجابر وقال:

- إنت خايف على (سليمان) صح؟، أنا حذرتك قبل كده إنك ماتخلفش وإنت خالفت كلامي.

مد (سليمان) يده وأمسك بملابس الشاب جاذبًا إياه نحوه صائحًا:

- بقولك إتكلم معاه عدل يـ...

انتفض (سليمان) للوراء بعدما شعر بألم جسدي مفاجئ بمجرد أن لامست أصابع يده جسد الشّاب، وقع أرضًا صارخًا من ذلك الشعور الغريب الذي ذكره بحادثة عادية في طفولته عندما تعرض لصعقة كهربائية بسيطة من مفتاح كهربي في منزله، نفس الصدمة ونفس الألم.

جثا (جابر) على ركبتيه بجانب (سليمان) بلهفة يطمئن على جسده ثم نظر للشاب وقال بدهشة:

- جسمك فيه شحنات كهربا زيادة؟

أومأ الشاب برأسه إيجابًا وهو يقول:

- آسف يا (سليمان) ماقصدتش أضرك، جسمي بقى بالشكل ده من كتر دخولي بيت (أبو خطوة).

ساعد (جابر) ابنه على النهوض وأخذ بشكل أبوي يزيح التراب عن ملابسه حتى انتهى وعاد ينظر للشاب وهو يقول:

- جسم (جعفر) اللي جوه البيت زي جسمك كده صح؟

- لا.. جسمه بقى شبة شحنة الطاقة، ولازم يكون تحت البيت في أغلب الوقت علشان جسمه يكون جنب مصدر طاقة عالي، وإلا يموت.

نظر (جابر) للأعلى متأملًا السماء وهو يفكر بصوت مسموع مغمغمًا:

- (جعفر) جسمه مش هايستحمل وهو جوه البيت وهيموت بس إمتى؟ مفيش وقت محدد.

رد الشاب ببرود وبطريقة رتيبة:

- ماتفكرش إنك تسيبه جوه البيت علشان يموت لوحده أو إنك تستدرجه بره البيت وتقتله، الوقت عنده جوه البيت مختلف عن الوقت عندك، هيكون عمل ألف حاجة قبل ما تلحق إنت تقتله.

- أنا مش عايز أقتله، أنا عايز أحل المشكلة من غير ما حد يموت.

قال عبارته بنبرة أقرب للحزن ناظرًا في عيني الشاب الذي نظر لسليمان وقال:

- (سليمان) أبوك هايفهمك بعدين لكن اتفكر إنك هتشوفني بعدين واحتمال تتعامل معايا، إوعى تحكي حاجة من اللي شُفتها ليا.

رفع (سليمان) حاجبيه وفتح فمه ليخبره أنه لا يفهم لكن (جابر) قال بسرعة:

- (سليمان) ماتحاولش تفهم حاجة، ركز في اللي هقوله

دلوقت، لو قابلت الشخص ده تاني اعرف إنه مش اللي إنت بتتكلم معاه دلوقت، دا واحد تاني وإوعى تعامله على إنه عدو أو صديق، فاهم حاجة؟

- لا.

- هافهمك بعدين، ادخل دلوقت البيت واتأكد إن (نهلة) مش صاحية ولو صاحية قولها بابا بيقولك ماتخرجيش من أوضتك لحد ما يقولك.

- مش هاسيبك واقف معاه يا بابا.

- يا بني افهم دا صاحبي.

- صاحبك!

ابتسم (جابر) وهو ينظر للشاب ويقول:

- هو فرق السن بينا كبير، وحقيقي هو مش صاحبي في الوقت اللي إحنا فيه، بس في الحقيقة هو صاحبي واتربينا مع بعض كمان.

أضاف الشاب بابتسامة ساخرة:

- والله ما حد عارف إيه اللي حصل وكنا أصحاب إزاي حتى؟

ربت (جابر) على ظهر (سليمان) بحنان وهو يأمره ثانية

بالدخول للمنزل.. بعد اختفاء (سليمان) المتشكك نظر (جابر) للشاب الذي قال:

- (جابر).. لما جيتلك في الستينيات طلبت منك ماتخلفش علشان إحنا مانعرفش إيه مصير ابنك لو نجحنا.

- تفتكر الحاجات دي بتيجي بالأوامر؟ (سلوى) كان نفسها..

- (سلوى) مين؟

- (صفاء) يعني.

- آآآآه.. (صفاء) كانت موجودة وحضرت كلامي ومع ذلك زنت عليك.

- كنا عايشين لوحدنا وهي احتاجت لأسرة، و...

قاطعه الشاب:

- وإنت دلوقت بين نارين، تنفِّذ اللي قلتلك عليه ولّا تلاقي طريقة تانية تخلي كل حاجة زي ما هي.

- تعرف إن (سليمان) عنده أولاد.

- وانت تعرف كام واحد مات في البيت يوم ما بدأ (جعفر) يرجع بالزمن؟ طب قولي كام طفل اتقتلوا في يوم المدبحة اللي بين (الدهان) و(السلاموني) وكل طفل فيهم كان هايكبر

ويتجوز ويخلف، قولي ذنب (راضي) أو(دعاء) أو(عمر) إنهم يعيشوا حياة مش بتاعتهم، أنا ذنبي إيه حياتي تتلخبط.

- إنت عايز تغير في الزمن زي ما (جعفر) عمل.

صرخ الشاب:

- أنا عايز أعيش في زمني الحقيقي.. إنت بتضحك على نفسك؟ إحنا وجودنا غلط من الأول.

مسح (جابر) على رأسه يحاول أن ينفض النعاس عن رأسه وهو يغمغم:

- مش قادر أصدق إني شايفك دلوقت.

سيطر الشاب على نوبة غضبه وتنهد وهو يقول:

- ماتحاولش تتواصل مع (أليكسندر) تاني، ممكن يعمل مشاكل.

- بالعكس أنا لازم أتواصل معاه لأني محتاجه.

- ليه؟

- في الستينيات لما قُلتلي على المقبرة بتاعة (دهشور) اللي جنب الهرم الأحمر.

- مالها؟ مش إنت خليت (سيد أبو خطوة) يفتحها زي ما قلتلك؟

- أيوه فتحها فعلًا بس (أليكسندر) أخد الحجر اللي كان في الحيطة بتاعتها ومحتفظ بيه هنا في (حلوان) في بيت كان تابع لمشروع إيزيس.

نظر الشاب له وقطب جبينه وهو يقول ضاغطًا على مخارج ألفاظه.

- إنت بتتكلم عن الحجر اللي بيشغل المقبرة صح؟

أيوة .. الحجر موجود في الغرفة العلوية في المقبرة، أنا دخلت المقبرة بعدين وحفرت في أرض الغرفة ولقيت سرداب زي ما قلتلي ونزلته ونقلت كل أدواته عندي هنا في البيت، بس أنا متأكد إن الحجر مهم علشان يشغل الغرفة .. مش انت قلتلي إنك عايز تبني غرفة زي غرفة القبر بالظبط؟

سرح الشاب ناظراً للأرض ومرت ثوان قال بعدها:

- انت واثق إنك نقلت الأدوات اللي لقيتها تحت؟ على العموم أنا كنت عايزك تدخل (عمر) وفريق التصوير للبيت ومعاهم الأدوات دي علشان يرجعوا للعصر اللي عايش فيه (فرغلي المستكاوي)

- وإيه اللي هايحصل لو الأدوات دي مش معاهم؟

نظر له الشاب بشك وقال:

- (جابر).. إنت دخلت مقبرة (فرغلي المستكاوي) اللي في (باسوس) في الستينيات مع (أليكسندر) صح؟

- آه.

- الأدوات اللي إنت بتقول إنك نقلتها من مقبرة (دهشور) لقيتها جوه مقبرة (فرغلي)؟

- مش فاكر.

- إوعى يا (جابر) تبعتهم من غير الأدوات دي.

- إنت عايز الأدوات دي علشان تبني مقبرة تانية جديدة ولّا عايزها مدفن لفرغلي المستكاوي؟

- أنا لسه ما أعرفش (فرغلي) مات مقتول ليه وما أعرفش هاننجح في بُنا الغرفة ولّا لا، لكن أنا بفكرك إوعى تغدر بيا لأني مش ضامن المستقبل هايحصل فيه إيه، لو (جعفر) نجح في إنه يجبر الزمن على أحداث محددة ممكن (سليمان) ابنك نفسه يموت في حادثة عادي، إنت عارف إن الزمن هايحاول يمحيك ويمحيني ويمحي كل الأحداث.

- ماتخافش.

- هزورك تاني قريب، افتكر تحضير (عمر) للي المفروض يعمله.

قال الشاب عبارته وسار باتجاه معاكس للمنزل و(جابر) صامت ينظر له وفي عقله تتجمع عشرات الاحتمالات لما يمكن أن يحدث في المستقبل.

***

الفصل الثامن

في أيام

2007

مكتب فريق تصوير البرنامج

على مقعد المكتب جلست أفكر في الأحداث السابقة وأنا أنظر لساعتي بين الحين والآخر، (راضي) طلب مني أن أنتظره في المكتب، وكل نصف ساعة يتصل بي ويؤكد أنه سيأتي، صوته في آخر نصف ساعة كان مريبًا، هرشت برأسي ونهضت لألين فقرات ظهري، فانفتح باب المكتب ودخل (راضي) علي وهو يحمل أوراقًا بيده.

لاحظت أن شاربه غير موجود فضحكت وكدت أن أقول شيئًا لكن (نهلة) دخلت وراءه المكتب وهي تنظر لي بشك.

- "أهلًا يا (نهلة)، هو (راضي) عملك حاجة؟"

قال (راضي) بجدية شديدة:

- "اسمع يا (حسام) دا بحث اتعمل على مخطوط قديم من أيام (محمد علي) باشا، البحث ده كان عند دكتور (جابر) من

زمان، وده جزء من المخطوط بعد ما عرفوا يقروا اللي فيه."

وضع الورق في يدي، نظرت له مصدومًا من لهجته الجدية الغريبة، رفعت الورق وقربته من عيني فقرأت:

((الشكل النهائي للفقرة الأولى:

بسم الله الرحمن الرحيم * أعرف أن ما أكتبه.. التصديق* لكني رضيت بقضاء الله وقدره * أرسل هذه الرسالة إلى صديقي حسام عبد الوهاب المهدي وأتمنى أن تصدقني وتنجدني مما...* أنا صديقك فرغلي المستكاوي * أجبرني جعفر على العودة بالزمن لهذا.. ومن حينها.. مسجون به*))

رفعت عيني من الأوراق ونهضت لا إراديًا من جلستي مفكرًا في احتمالية أن يصنع بي (راضي) مقلبًا غبيًا غير أنه لم يكن من هواة هذه الأشياء، نظرت له ولنهلة التي جمع وجهها بين الغباء واللهفة وقلت ببطء:

- إيه البتاع ده لا مؤاخذة؟

سألتني (نهلة) بشك:

- إنت اسمك زي ما هو مكتوب في المخطوط فعلًا؟

- أيوه يا (دعاء) هو اسمه بالكامل.

قالها (راضي) بحكمة فنظرت له وأنا أقول بغباء:

- (دعاء) مين؟

- لا دي حكاية كده هاقولهالك بعدين، ركز إنت بس وكمل قراية.

أعدت عيني للأوراق فوجدت كلامًا كثيرًا عن تحليل أنماط الحبر المستخدم في الكتابة وعن درجة تشبع الورقة، مدَّ (راضي) يده لي ليقلب الصفحات فوقعت عيني على صفحة كتب فيها.

((الشكل النهائي للفقرة الثانية:

منذ أن... وأنا في حيرة من...* حاولت التأقلم على الحياة و...* تعرضت لحوادث... تؤدي لقتلي لكني نجوت بفضل الله و...* .... في عصر خديو مصر المعظم محمد علي باشا* كما ذهبت لقرية أبو النور وعشت بها واتخذت لي منزلا في باسوس* .... عائلة السلاموني* حتى أنني أخاف الزواج كي لا ....*))

رفعت عيني لهما ولم أجد ما أقول فبادرت (نهلة) بالحديث قائلة:

- طول الطريق (راضي) بيحكيلي كل حاجة عنكم وعن بيت (أبو خطوة) بس أنا مش قادرة أصدق إن فيه مخطوط قديم بيخاطبك.

رد عليها (راضي) قائلًا:

- لو المخطوط ده بجد يبقى بدأت أفهم.

- فهمت إيه؟

صمت هو قليلًا ثم قال:

- مش عارف، أنا شكلي هايبقى عبيط لو قلتها.. السفر عبر الزمن.

- حلاوتك..

قلتها وأنا أضحك بطريقة عصبية وأعود لأجلس على مقعدي بينما (راضي) يخرج سيجارته المقرفة ويشعلها ليظهر بمظهر الحكيم وهو يتجه للكومبيوتر الخاص به ويفتحه وهو يقول:

- كل حاجة بتقول كده برغم إن مفيش سفر عبر الزمن علميًا، لكن الفيديو اللي ظهرت فيه أنا وإنت في البيت كان متصور قبل ما نشوف (صفاء).

كان يقول عبارته وهو يفتح الكومبيوتر ويقوم بتشغيل الفيديو الذي تركته (صفاء) لي في بداية تعرفي إليها، الغريبة أن (راضي) لم يكن ينتبه لنهلة الواقفة بحرج بجانب باب الغرفة، أشرت لها أن تجلس وعدت لمطالعة الورق فسمعت صوتها يقول:

- هو إنت تعرف حد اسمه (فرغلي المستكاوي) عايش دلوقت معانا؟

قلت لها وأنا أهرش برأسي:

- ممكن يكون تشابه أسماء.

جاء صوت (راضي) وهو يقول باستنكار:

- أسماء دي تبقى...

توقف عن إكمال عبارته وهو ينظر لنهلة محرجًا وهي تسأله بأدب عمن تكون (أسماء):

- لا دا (راضي) كان هايشتمني، إنتي متأكدة من اللي مكتوب هنا؟

قبل أن تتكلم صرخ (راضي) وهو يشير للفيديو المشغل على الشاشة أمامه وأظهر فيه أنا وهو ونحن ننظر للكاميرا الملقاة.

- شُفتي أهو زي ما قلتلك وإحنا جايين، دا سفر عبر الزمن.

قلت أنا بعصبية:

- (فرغلي المستكاوي) لسه مكلمني قريب في التليفون حتى إنت كنت معايا، يبقى إزاي بقى اللي مكتوب ده.

أخرجت هاتفي المحمول وطلبت رقم (فرغلي المستكاوي) أكثر من مرة لأجد هاتفه المحمول مغلقًا، جاءت آخر مكالمة بيني وبينه كالذكرى في عقلي:

((رن هاتفي المحمول فقفزت من المفاجأة وانتفض (راضي) هو الآخر، التقطت أنفاسي ونظرت لشاشة الهاتف لأجد اسم

صديقي المخبول الذي يذكرني براضي يطالعني على الشاشة، ضغطت زر الرد ووضعت الهاتف على أذني وأنا أقول بتعجل:

- مش وقتك خالص يا (فرغلي) أنا مش فايق لـ...

أتاني صوت (فرغلي المستكاوي) من الطرف الآخر للمكالمة بصوت لاهث وهو يقول والصوت يتقطع:

- الحلم .... با...... بيـ...قق .... صاحبك .... ألو.

- يا ابني مش سامع حاجة.

- طب كده سامعني؟

- آه.

سمعت صوتًا غير مفهوم ثم صوت (فرغلي) كأنه يتحدث مع شخص آخر ويقول:

- لا والله عيب تدفع إيه، دا معرفة الرجال كنوز.

ما الذي يقوله هذا الغبي هو الآخر، صوته يأتيني وهو يتعازم مع شخصٍ آخر على دفع أجرة ميكروباص، لا وقت عندي لهذا الغباء، أغلقت الهاتف في وجهه ونظرت لراضي)).

المكالمة رغم ما يظهر من تفاهتها إلا أنها تحمل شيئًا ما في بعض مقاطعها، هل كان يتكلم عن حلم له يتحقق؟ ومن هو صاحبي الذي يرافقه؟ هل ما أفكر فيه حقيقي؟ عاودت النظر للأوراق بشغف أكثر هذه المرة وأنا أقول لنهلة بدون النظر لها:

- الورق ده جايباه منين؟

- ده ورق قديم كان عند دكتور (جابر) في مكتبته.

- قديم من قد إيه؟

- اقرأ تاريخ اللي عامل تحقيق للمخطوط هاتلاقيه محلله من حوالي 40 سنة.

قرأت فقرة أخرى تقول:

((الشكل النهائي للفقرة الثالثة:

.... خديو مصر بتعييني مستشارًا بديوان المختصات ....* أنقل له رأيي في حروب صاحب العزة إبراهيم .... بكامل ما اتفق ....* بعد أن رأى مني نبوغًا وفهمًا لدقائق السياسة مع الفرنسيس منذ عام ألف وثمانمئة و...... ....* لن تصدق من كان يلح على الخديو في حفر ممر مائي يربط البحر الأحمر..... المتوسط، إنه ماتيو ديليسبس والد........ ديليسبس* نصحته بأن يماطله بالموافقة في البداية *.... ....* فهو يحتاج للفرنسيس لدعمه السياسي* لكم أتمنى أن أخبره بكل ما أعرف أنه سيحدث في المستقبل فـ..... ....))

رفعت عيني لنهلة التي تشاهد الفيديو و(راضي) يعيد لها بعض المقاطع فقلت:

- هو الكلام قالب تاريخي ليه؟ بقية المكتوب كله كده؟

نظرت هي لي وقالت وهي تشير للورق:

- في الأواخر هاتلاقي مقاطع ممكن تفيدك، كمان آخر جزء من المخطوط حروفه أوضح برغم إني ماكنتش فاهماه لما قريته أول مرة.

وصلت لفقرة تقول:

((الشكل النهائي للفقرة السابعة:

قابلت عزام أبو خطوة مالك البيت* وعلمت بأنه يحرس مدخل لعالم يشبه خيالات ابن عربي في دخوله أرض الحقيقة* فرجال عائلة أبو خطوة هم... ...... يحرسون مدخل هذا العالم* وقد زودوا بما.... به حماية المدخل* وقد هالني ... . لي حديث ابن عباس.... ... في كل أرض نبي كنبيكم وآدم كآدم ونوح كنوح وإبراهيم كإبراهيم وعيسى كعيسى* وأن عائلته يتحركون... .... إن أرادوا ليحموا المدخل))

تحركت بعيني بعد انتهاء الفقرة لأجد ملاحظة كتبها محقق المخطوط تقول: ((كاتب الرسالة هنا ينتهج الخرافة والشعوذة وهو منحى غريب على من عمل مستشارًا لمحمد علي باشا الذي عرف عنه بغضه لمروجي الخرافات، وعلى أرجح القول فإن كاتب الرسالة يقصد أحد أحاديث ابن عربي في كتابه الفتوحات المكية في معرفة الأسرار المالكية والملكية والذي جاء فيه "فإذا أراد واحد منَّا الدخول لتلك الأرض من العارفين من أي نوع

كان: من إنس أو جن أو ملك أو أهل الجنة بشرط المعرفة وتجرد عن هيكله وجد تلك الصور على أفواه السكك قائمين موكلين بها قد نصبهم الله سبحانه وتعالى لذلك الشغل فيبادر واحد منهم إلى هذا الداخل فيخلع عليه حلة على قدر مقامه ويأخذ بيده ويجول به في تلك الأرض."

وفي الخروج من هذه الأرض يقول ابن عربي: "فإذا قضى منها العارف وطره وأراد الرجوع إلى موضعه مشى معه رفيقه إلى أن يوصله إلى الموضع الذي دخل منه يودعه ويخلع عنه تلك الحلة التي كساه إياها وينصرف عنه وقد حصل علوما جمة ودلائل" بيد أن ابن عربي يتحدث عن تجليات صوفية لا عن وجود مادي لتلك الأرض، غير أن كاتب الرسالة يصدق من يخبره بأنه يقوم بمهمة الحارس الذي يقف على أرض الحقيقة أو أرض السمسمة كما يسميها إبن عربي ويلقي على من يدخلها رداءً ليتمكن من السير بها، وهذه الخرافات تعلق بها المصريون في القرن التاسع عشر برغم غرابة الاستعانة بقول لابن عربي.

رفعت عيني مفكرًا فيما كنت أطالعه، هل أحسست من قبل أنك تفهم شيئًا ولا تفهمه في نفس الوقت!! شعور متناقض زاد وأنا أقرأ الفقرة التي تليها:

((الشكل النهائي للفقرة الثامنة:

كل ما عليك أن تدخل لمنزل... خطوة* .... وتدخل للقاعة

التي أرفقتها لك .....* وتحفر حتى تصل......... .....*
سيظهر لك...... اطلب منه أن تأتيني لأن... ... فمهمتي
فشلت والأشياء تنهار من حولي* ولا ....))

جريت سريعًا على تحليل الفقرة حتى وصلت لرسم هندسي مبسط لمكان يشبه الشقة وفي إحدى الغرف المرسومة كتبت عبارة ممسوحة، لو صح ما أعتقده فهذا رسم للشقة التي دخلناها في منزل (أبو خطوة)، تأملت الغرفة ونهضت من مقعدي سائرًا حتى وصلت لراضي ووقفت بجانبه أريه الرسم وأقول:

- المكان ده خرج منه (جعفر) في الليلة اللي دخلنا فيها البيت صح؟

تأمل (راضي) الرسم لفترة طويلة قبل أن يهز كتفية ويقول عبارة عن عدم تأكده؛ لأن الرسم لا يطبق معايير هندسية حقيقية، وضعت الأوراق على المكتب لأن المحقق انتهى من تحليل الفقرات وقام بكتابة كلام كثير عن أفكاره بشأن كاتب المخطوط، ثم وقفت بجانب المكتب أفكر و(راضي) و(نهلة) ينظران لي كأنهما ينتظران كلمات ما سألقيها.. مشكلة مظهري أنه في بعض الأحيان يصبغ على هيئة الحكماء حتى إنني أخجل من ألا أدلو بدلوي في تلك اللحظة، لذلك قلت:

- (راضي)، محتاجين ناخد نسخة من الورق ده.

نظرت لي (نهلة) معترضة بعينيها فقط بلا كلمات.

- خليكي مكانا يا (نهلة)، دكتور (جابر) عايزنا ندخل البيت تاني تحت إشرافه، و(راضي) يجيبلي ورق بيقول إن واحد صاحبي باعتلي رسالة من 150 سنة، لازم نفكر بنفسنا وناخد قرار..

أوقفت كلماتي لأن باب الغرفة انفتح ليظهر (أحمد عصفور) مدير الإنتاج يدخل وهو يلقي السلام مبتسمًا لكنه نظر لنهلة متجمدًا فقلت أنا:

- (راضي) هايفهمك كل حاجة دلوقت، أنا بقى لازم أروح أزور واحد صاحبي.

تركتهم جميعًا متجمدين بأماكنهم يشاهدونني وأنا أقوم بتوصيل الكومبيوتر بفلاش ميموري نحتفظ به في المكتب وأقوم بنقل الفيديو الذي صورناه ليلة دخولنا المنزل للفلاش ثم خرجت جريًا مغادرًا الشركة ومتجهًا إلى شقة (فرغلي المستكاوي) والذي يسكن في الشقة المقابلة لي، أعرف أنني لن أجده.. خطر لي أن كل هذا ما هو إلا خطأ أو مقلبًا لكن ذلك الخاطر لم يدم أكثر من ثانيتين، المشكلة أنني أشبه أبطال المسرح اليوناني الذين يسيرون طوال المسرحية ليحققوا قدرهم الذي كتبته لهم الآلهة بدقة.

لكن (جابر) ليس إلهًا إغريقيًا وليست هذه مسرحية بل هي الحياة والتي يمكن أن أختار فيها قدري لأنني مسئول عنه، دارت الأفكار برأسي حتى وصلت أمام شقة (فرغلي) الذي يعيش مع

والدته وشقيقته الصغرى وشقيقه الأكبر، واكتشفت ما توقعته، (فرغلي)، شقيقه الأكبر أخبرني بأنه تلقى زيارة بالأمس من شاب جلس يتناقش معه لفترة قبل أن يخرجا سويًّا بعد أن أبلغ (فرغلي) والدته أنه سيتأخر قليلًا، لم يعد (فرغلي) وهم يبحثون عنه من الصباح حتى إنه كان سيأخذ رقم هاتفي المحمول من أهلي ليسألني اليوم.

طلبت من شقيقه أن أستخدم الكومبيوتر الخاص به وقمت بتوصيل الفلاش ميموري به وسط ذهوله وشغلت الفيديو وتوقفت عند لقطة تجمعنا كلنا ويقف (عبد الفتاح الدهان) و(عبد الرحمن) والد (صفاء) و(جعفر)، أشار هو ناحية (جعفر) وقال أنه هو من جاء أمس لكنه يبدو أكبر سنًّا قليلًا عندما رآه أمس، أغلقت الفيديو وأنا أخبره بقصة غير مترابطة عن (جعفر) لم يصدقها وأكدت له أنني سأبحث عن (فرغلي) بنفسي من هذه اللحظة.

لم يصدقني ولا ألومه، لكن الورطة الحقيقية أنه ربما سيبلغ الشرطة واحتمال أن يضع اسمي في المحضر، يجب أن أتحرك بأسرع ما يمكنني برغم أنني لا أعرف سبيلًا للتحرك سوى إلى قرية (أبو النور) موضع (جعفر) الحالي، يمكنني أن أخرج منه أي معلومة، وخاصة أن آخر زيارة رأيته فيها كان ينظر لي بشكل غريب كأنه يريد إخباري بشيءٍ ما.

أثناء طريقي للقرية جاءني اتصال من (راضي)، ودارت بيننا مناقشة طويلة عن شيءٍ لم يعرف هل يقوله أمام (نهلة) أم ينتظر الانفراد بي، أخبرني بأنه قام بتصوير لوحة كتبت عليها معادلات كثيرة في منزل دكتور (جابر) وأنه ذهب بها لمتخصص في الرياضيات، حكى لي (راضي) عن أشياء كثيرة عن نظرية الأوتار والتمزق في نسيج الزمكان إلخ إلخ، لكنني لم أعِ حرفًا مما ألقاه على مسامعي.

- يا عم (حسام) فوق كده وصحصح، مش أنا بقولك من الصبح إني متأكد إن الموضوع ليه علاقة بالسفر عبر...

قاطعته:

- كلامك شكله حلو وعميق بس أنا مش عارف أصدقه.

- أو مش فاهمه.

عاد ليخبرني بنفاد صبر أن السفر عبر الزمن علميًا غير ممكن ولا يوجد افتراض علمي أو نظرية تدعمه، لكن نظرية الأوتار تتكلم عن تمزقات طبيعية تحدث طوال الوقت في نسيج الزمان والمكان لكنها تلتئم في لحظات، ومعادلات (جابر) تؤكد أن التمزقات تحدث طبيعيًا في أجزاء من النسيج الزمكاني ويمكن المحافظة على تمزقها.

- أيوه وإيه المشكلة لما يتفتق النسيج؟

- ممكن حد يعدي منه.

- ليه هو النسيج بيتقطع جامد؟

- يا عم (حسام) أنا مبتكلمش عن مفرش سرير مقطوع، هاقولك...

قاطعته:

- أنا اللي هقولك، (فرغلي) اختفى من بيته فعلًا واللي أخده يبقى (جعفر) والموضوع بقى كبير، أنا لازم أطلع على (أبو النور) وإنت تروح لجابر تسأله على ميعاد دخولنا البيت علشان نجهز نفسنا.

- معاد إيه؟ هو احنا هنخش البيت بجد؟

- آه بس قبل المعاد اللي هايحدده (جابر)، لازم نعرف لوحدنا إيه اللي مستنينا جوه في الأوضة اللي خرج منها (جعفر) في الفيديو.

أنهيت المكالمة وانتبهت للطريق الذي يسلكه التاكسي الذي يقلني للقرية، راجعت الطريق بسرعة في عقلي ونزلت لأعيد الأسئلة ثانية عن منزل كبير عائلة (الدهان) حتى وصلت لهناك، سألت على (جعفر) فوجدته يخرج لي من باب المنزل يتلفت حوله كأنه مراقب.

اقتربت منه لأصافحه لكنه مدَّ يده وجرني جرًّا لأسير بجانبه

ونحن نبتعد عن المنزل متجهين لشارع يمر بين أراضٍ زراعية على جانبيه، فضلت الصمت حتى يتكلم هو:

- قولي يا (حسام).. تعمل إيه لو قلتلك تختفي اليومين دول؟

- فهمني ليه وأنا أختفي.

كان يسير متلفتًا بطريقة مريبة جعلت أي شخص يمر بجانبنا ينظر لنا بشك، بينما هو يقول:

- أستاذ (جابر) حذرني من إني أكلمك لحد ما أسافر، لكن في نفس الوقت قالي إننا كنا أصحاب.

- إنتوا مين؟

- أنا وإنت.

- لا مؤاخذة فهمني أكتر تقصد إيه؟

- أستاذ (جابر) هايطلب منك إنك تدخل بيت (أبو خطوة) تاني، إوعى توافقه.

- ليه؟

- علشان حياتك وحياة أصحابك.

- (جعفر).. اسمحلي أعرفك إني مابحبش الألغاز، ممكن تجاوبني على سؤال بسيط، إيه علاقتك بدكتور (جابر عبد السيد)؟

توقف على جانب الطريق ونظر لعيني طويلًا وقال:

- (جابر) هايبعتني مشوار طويل أنا و(صفاء)، واداني تفاصيل كل حاجة علشان قبل ما أموت أحاول أصلح الأخطاء اللي ارتكبها هو.

هذا الغبي يتكلم بالألغاز ويتوقع مني أن أفهم، أو ربما الجميع أصبح يلمح ولا يصرح.

- يا (جعفر) فيه صديق ليا اختفى و(جابر) في...

قاطعني قائلًا:

- (فرغلي المستكاوي).

- إنت تعرف هو فين؟

- أنا عارف إن (جابر) هايبعتك ليه، ومتأكد إنك مش هاترجع.

لم أتمالك أعصابي وأنا أصرخ:

- فهمني وبطَّل تهريج.

- الليلة يا (حسام) ماتكونش في أي مكان حد يوصلك فيه، وعلى فكرة أستاذ (جابر) بيراقبك إنت وأصحابك، دا كل اللي عندي واعمل اللي يعجبك.

أنهى عبارته وسار عائدًا ناحية المنزل تاركًا إياي واقفًا أفكر فيما قاله وأحاول مكافحة ذلك الشعور الذي يلح عليَّ بأن ألتقط حجرًا من الأرض وأهشم به مؤخرة رأس (جعفر) لادعائه الغموض والسيطرة.

***

في قاعة مكتب (جابر) بمنزله جلس (عمر أبو خطوة) يعبث بأصابعه و(جابر) يجلس في مقعد مقابل له مرتديًا قميصًا وسروالًا قماشيًا وهو يدخن سيجارة بعمق وينظر صامتًا لعمر الذي أكمل العبث بأصابعه وهو يفكر بشيء ما.

- (عمر) إنت بقالك كام سنة مستني أفهمك إيه المطلوب منك؟

لم يرد (عمر) فأكمل (جابر):

- كل المطلوب منك إنك تكون من عيلة (أبو خطوة) بجد.

رفع (عمر) رأسه لجابر وقال بطريقة يائسة:

- أنا أفهم إزاي أعمل رصد لمكان، إزاي أفك رصد، إنما اللي بتقوله أنا ما أعرفوش.

دخل القاعة أحد أبناء (سليمان) جريًا وهو يضحك ببراءة وشقيقته تجري وراءه لكنهما توقفا ينظران لعمر بخوف، ضحك (جابر) لهما وهو يقول:

- أنا مش قُلت بلاش لعب في المكتب النهارده، حصلوني على أوضة اللعب وأنا جايلكم.

جرى الطفلان و(جابر) يعيد النظر لعمر وابتسامته تختفي فجأة قائلًا:

- إنت مش حفظت شكل الغرفة اللي هتبنيها؟

- آه.

- وحفظت مكانها بالتحديد؟

- عارف المكان كويس في (باسوس).

- وعارف هتقول إيه لجعفر لو سألك أو أي حد تاني يسألك.

- أنا مش مصدق اللي إنت بتقوله.

أتى صوت أزير من الجهاز الصغير الذي يفتح بوابة المنزل والذي يحمله (جابر) دائمًا، كان موضوعًا بجانب (جابر) على حافة المكتب فتناوله هذا الأخير وهو يضغط زرًا به ليختفي الأزير ويأتي صوت لشخص يقف أمام بوابة المنزل يقول بنبرة آمرة:

- افتح الباب يا (جابر).

ابتسم (جابر) بخبث وهو يستمع للصوت وينظر إلى (عمر) قائلًا:

- فيه شخص هايقابلك دلوقت أنا قولتلك عليه قبل كده وقولتلك ماتخافش منه.

- مين؟

نهض (جابر) من مقعده وسار ناحية الدولاب في الحائط المجاور للمكتب وهو يفتحه لتظهر به الشاشات التي تعرض ما تصوره كاميرات المراقبة حول المنزل، أشار للشاب الواقف أمام البوابة وهو ينظر لكاميرا المراقبة فهز (عمر) رأسه علامة الفهم.

- فاكرة من ساعة ما ورثني صورته.

ضغط (جابر) على زر فتح البوابة في الجهاز وهو يقول:

- ادخل أنا مستنيك في قاعة المكتب.

قال عبارته في الجهاز وأعاده لمكانه وهو يطفئ سيجارته ويقول:

- أنا هاخرج أجيبه.

- إنت كنت عارف إنه جاي؟

- رجالتي بلغوني من شوية.

أسرع (جابر) في خطواته جريًا ليخرج من القاعة و(عمر) ينظر له مفكرًا في جدوى ما يفعله، قفزت في عقله فكرة أن يرفض الآن.. لكنه امتلك فضولًا لمعرفة ما تركه أجداده أسفل المنزل، ما يشعر به في تلك الأيام عندما عاد (جابر) للاتصال به لم يشعر به بحياته، خوف غريب لم يختبره منذ طفولته، صحيح أنه صنع عهدًا جديدًا مع قبيلة من الجان وأصبح له خدام منهم لكنه لم يستخدمهم بشكل حقيقي.

تذكر كيف انهارت حياته عام 2005 بعد أن فقدَ جزءًا من ذاكرته، ابتعد عن عمليات فتح المقابر واكتفى بإدارة شركاته، كأنه فقد جزءًا منه بشكل أو بآخر، أو كأنه لم يصبح كما اعتاد،

هناك شرخ كبير في روحه لم يلتئم، وبرغم غموض (جابر) وطلباته المريبة إلا أنه متأكد أنه يعرف كل شيء.. حتى إنه حاول إرسال جني لمنزل (جابر) واستجواب قرينه ففشل وعلم أن (جابر) يعلم عن عالم الجان الكثير، لذلك توقف عن المحاولة حتى طلب منه (جابر) فتح باب المنزل لتدخل (صفاء).

اكتفى هنا بدور المراقب حتى بدأت الصورة تتضح كليًا، دخل هنا (جابر) بصحبة الشاب الذي رآه في شاشة كاميرا المراقبة، تأمل الشاب قليلًا والشاب يبادله النظرات المتفرسة ثم نظر لجابر وقال:

- إنت كنت مستنيني؟

- توقعت إنك جاي.

قالها (جابر) وهو يعود لمقعده ويشير للشاب كي يجلس.

- توقعت إني جاي والا حاطط حد بيراقب بيت (أبو خطوة)؟

- بمناسبة بيت (أبو خطوة)، دا (عمر أبو خطوة) الشخص المطلوب.

- (جابر) حكالك مطلوب منك إيه؟

قالها الشاب ببرود وهو يجلس على مقعدٍ:

- آه.

ردَّ (عمر) بوجهٍ بائسٍ فقال الشاب:

- الحاجة جاهزة يا (جابر)؟

- فيه معدات تصوير هنا في البيت وجوَّاها الأجهزة اللي طلعتها من القبر، هاخليهم يخشوا البيت ومعاهم المعدات دي و(جعفر) هينقلهم لنفس وقت (فرغلي المستكاوي) هما والأجهزة وإنت قلتلي إن الأجهزة ممكن تتدمر لكن الأدوات اللي جواها مش هايحصلها حاجة.

توقف (جابر) عن إكمال عبارته وهو يتفرس في ملامح الشاب الذي ظهر عليه التألم وكأنه يكافح شيئًا ما، فجأة سعل الشاب وخرجت دماء كثيرة من فمه غطت الأرض وتناثر بعض منها على ملابس (عمر) الذي نهض منزعجًا وهو يجري ناحية الشاب لينجده لكن (جابر) أمره بألا يقترب منه وقال بلهفة:

- مالك؟

تمالك الشاب نفسه وهو يمسح الدماء عن شفتيه ويعتدل بجلسته وهو يتنفس بعمق ويقول:

- مفيش.. أنا كويس.

على عكس ما توقع (عمر) من كثرة تعامله وسط الجان ومشاهدته لأغرب المشاهد وجد تقرحات تظهر على وجه الشاب أفزعته، خطوطًا حمراء وبقع حروق تظهر في خديه وجبهته وفمه

لثوانٍ كأنها ترتسم ثم تعاود الاختفاء، نهض (جابر) واقترب من الشاب قليلًا يتأمل وجهه الذي تظهر عليه تلك العلامات الغريبة.

- إيه اللي بيحصل لجسمك؟

- مش مهم، ماتنساش (نهلة) لازم تكون معاهم.

- لا.

قالها (جابر) بحزمٍ وهو يسير مبتعدًا ناحية مكتبه يبحث عن علبة سجائره، اختفى ظهور التقرح من على وجه الشاب وعاد لطبيعته وهو يقول ببرودٍ:

- (نهلة) هتعرف تصلح الأخطاء التاريخية اللي عملها (فرغلي)، وكمان...

- أنا قلت (نهلة) مش هتروح، ومفيش مناقشة في الكلام ده؟

- إنت ناوي تغدر باللي هايروحوا؟

قالها الشاب وهو ينهض بتثاقل بينما (جابر) يحمل علبة سجائره ويخرج سيجارة وضعها في فمه وهو ينظر إلى اللا مكان للحظات بصمت، نظر بعدها للشاب وبصق السيجارة وهو يقول بصوت يرتفع تدريجيًّا مع كل كلمة ملوحًا بيديه في الهواء:

- اسمع بقى، أنا كنت ماشي كويس وعارف هاعمل إيه في حياتي، جيت إنت لخبطلي كل حاجة بفكرة مجنونة محدش عارف

هاتنجح ولا لأ، وكل ما أعمل حاجة تقولي إني هاغدر بيكم، أنا لو عايز أغدر ماكنتش تعبت كل السنين دي علشان.

قاطعه الشاب ببرود:

- نسيت أباركلك على حفيدك الجديد.

- إنت بتهددني يا روح أمك؟

- لأ.. أنا بطمنك إني شُفت حفيدك بعد ما إنت بعتهم لزمن (فرغلي)، يعني محدش هايحصله حاجة من أهلك برغم إنك المفروض لو مشيت على اللي إنت عايزه ماتشوفوش أصلًا.

- إنت إزاي بتقنع (جعفر) إنك تتحرك في أي وقت في الزمن بالسهولة دي؟

قالها (جابر) بشك.

- هو بيثق فيا وواثق إني عايز أحل المشكلة دي كلها.. أنا عارف يا (جابر) إنك بعد ما شُفت حفيدك خوفك زاد وممكن تشك في اللي أنا بقولهولك وتحب تكمل حياتك زي ما هي، لكن صدقني أنا عمري ما هاضرك.

تسارعت أنفاس (جابر) وهو ينظر للشاب محاولة قراءة تعابير وجهه، لكن الشاب سأل:

- عرفت تجيب الكرة اللي بتشغل الغرفة من (أليكسندر)؟

- آه.. عرفت أدخل بيته النهارده الصبح وجبتها وموجودة جوه الأجهزة.

- كويس.. لأنك ماعرفتش تجيبها قبل كده.. على العموم إنت عارف المفروض تعمل إيه مش كده؟

عاد (جابر) لهدوئه وهو يقول:

- أنا هاخلص كل حاجة ماتقلقش.

تحرك الشاب ناحية باب القاعة ليخرج منها ولكنه توقف ونظر لعمر ولأول مرة ابتسم وقال له:

- أشوفك على خير وإحنا داخلين البيت.

ثم نظر لجابر وقال قبل أن يغادر:

- ماتوصلنيش لبره، أنا هاعرف أخرج من بيتك لوحدي.

للحظة خيل لجابر و(عمر) أن جسد الشاب يرتعش أو ينتفض لكنه خرج من باب القاعة بشكل طبيعي يسير في الساحة الداخلية للمنزل برصانة، حانت منه التفاته لأحد أركان الساحة فوجد (نهلة) تقف تتحدث مع فتاة أخرى أمام أحد أبواب القاعات ولكنها تنظر إليه بطرف عينيها بدهشة، أكمل سيره حتى وصل للحديقة الخارجية فوجد بوابة المنزل تنفتح له، خرج من البوابة التي أغلقت خلفه وسار مشيًا بمحاذاة الطريق، لكن سيارة تاكسي سوداء اقتربت من المنزل وتوقفت بالقرب منها و(راضي) يجلس في المقعد المجاور للسائق لكنه يخرج نصف جسده بطريقة طفولية خارج نافذة السيارة التي توقفت وهو

يشير للشاب، توقف الشاب ونظر لراضي الذي خرج من السيارة بسرعة ووقف أمامه مندهشًا وهو يقول:

- إيه يا ابني اللي جابك هنا دلوقت؟ ومال شكلك مبهدل كده ليه إنت كنت بتتخانق؟

ابتسم الشاب وهو يقول لراضي:

- إنت مش داخل تقابل (جابر)؟ روح الحقه وبعدين نتكلم لما تخلص معاه.

قال عبارته وأكمل سيره و(راضي) يصرخ عليه:

- رايح فين يا (حسام).. طب استنى نرجع مع بعض.

أكمل الشاب سيره وسائق التاكسي ينادي على (راضي) مطالبًا إياه بالأجرة، ارتبك (راضي) لوقت قليل كان كفيلًا بابتعاد الشاب عنه فاضطر لمحاسبة السائق وعاد ينظر للشاب المبتعد، أخرج هاتفه المحمول واتصل برقم (حسام) فردَّ عليه هذا الأخير لكن (راضي) لم يجد الشاب المبتعد يتحدث في الهاتف:

- (حسام) هو إنت مش كنت عند (جابر) دلوقت ولسه مقابلني؟

- لا.. إيه اللي إنت بتقوله ده!

- يا نهار اسود.

***

جلس (أحمد عصفور) في ذلك المقهى الذي أخبره (سليمان) به منذ ساعة، كان يحمل بيده بضع أوراق مطوية وهو يجول بعينيه في المقهى الشعبي، تتعاقب الخواطر على ذهنه في شكل أسئلة عن جدوى تعامله مع (سليمان) بدون علم فريقه، يعتقد أنه لو أخبر أحدًا منهم فسيعلم (سليمان) والمشكلة أنه يوحي بأنه سيعلم كل شيء.

دخل (سليمان) من باب المقهى الصغير وجلس على المقعد المجاور له فناوله (أحمد) الأوراق.

- طب استنى نشرب حاجة ونتكلم.

بحركة تنم عن الارتباك سحب (أحمد) الأوراق ثانيةً فابتسم له (سليمان) ليكسر حدة الموقف ونادى على القهوجي ليطلبا منه المشروبات:

- ها يا سيدي طلبتني في التليفون من شوية وقولتلي إننا لازم نتقابل، لحقت تعرف إيه؟

مدَّ له الأوراق ثانية فتلقفها هذه المرة وفضها و(أحمد) يقول:

- دي نسخة أخدتها من بحث عن مخطوط، البحث ده وصل لراضي و(حسام) النهارده من ساعتين.

جرت عين (سليمان) على أوراق البحث بتثاقل وملل حتى وقعت عيناه على بعض العبارات التي تبين أن البحث عن

مخطوط (فوجول المستكين)، رن الاسم في عقله وتذكر ما قرأه عن مشروع إيزيس ومشاركة والده والمخطوط الذي اختفى هو والبحث الذي حوله، تذكر مطالعته تقريرًا أمنيًا يتهم والده بسرقة هذه الأشياء من المشروع، اعتدل في مقعده وهو ينظر لأحمد بعين ذاهلة قائلًا:

- انتوا جبتوا الحاجات دي منين؟

- من دكتور (جابر) من غير ما يعرف طبعًا.. وماتسألنيش جبناها إزاي.

قالها (أحمد) بتردُّد فعاد (سليمان) لقراءة الأوراق بنهمٍ وعقله يقوم بربط الأحداث وهو يطالع اسم (حسام)، متذكرًا يوم شاهده بعام 2005 وحاول أن يتعارك معاه لكنه صعق كهربيًا وكيف فهم أنه شخصٌ آخر غير (حسام) الحالي.

لم يشأ (أحمد) أن يتحدث و(سليمان) يقرأ واكتفى بشُرب الشاي الذي أحضره القهوجي وهو يسرح في مدخل المقهى، ارتعش كوبَ الشاي بيدِه وهو يرى (جابر عبد السيد) يدخل من باب المقهى مبتسمًا وخلفه بضعة رجال يرتدون ملابس متباينة لكنهم يسيرون بثقة وزهوٍ يذكره برجال الأمن، تجمد (أحمد) بموضعه و(جابر) يبتسم له وهو يرفع يده اليمنى ويضع إصبعه على شفتيه في إشارة له حتى لا ينطق.

خطا (جابر) بتثاقل حتى وصل إلى منضدتهم وسحب مقعدًا ليجلس عليه بجانب (سليمان) الذي أجفل ورفع عينيه من على الأوراق لتصطدم بابتسامة والده الذي سحب منه الأوراق ببساطة وأخرج من جيب بذلته علبة أنيقة فتحها وسحب منها نظارته الطبية ليرتديها وهو يطالع الأوراق.

حاول القهوجي التحدث مع الرجال المرافقين لجابر الواقفين بجانبه لكن أحدهم أخرج بطاقة هوية من جيبه وأراها للقهوجي المسكين الذي أصابه الذعر وجرى لصاحب القهوة ليخبره بشيء ما بعدما قال له أحد الرجال أن يذهب لممارسة عمله.

على وجه (جابر) ارتسمت ملامح الصدمة وهو يقلب في الأوراق، أغلقها وخلع نظارته وهو ينادي بصوت عالٍ على القهوجي الذي جاء جريًا ينتفض في وقفته.

- لو سمحت هاتلي شاي سكر بره يا ابني.

هز القهوجي رأسه بأدب وخنوع وجرى وهو يقول ويردد لنفسه بصوت مسموع أكثر من مرة (شاي سكر بره.. شاي سكر بره) كأنه يخشى نسيان الطلب، نظر (جابر) لسليمان وهو يقول ببساطة:

- إنت سايبني ألعب مع عيالك بلاي ستيشن وقاعد هنا على القهوة؟

تمالك (سليمان) نفسه سريعًا وقال:

- أنا مش هبررلك حاجة.

- هو أنا طلبت تبرير.. قولي هنتغدى النهارده مع بعض كلنا ولا هاتتأخر؟

تنحنح (سليمان) وابتلع ريقه ليصفى صوته ونظر في عين والده قائلًا بصوت أجش:

- (حسام) اسمه في المخطوط، إيه حكايته؟

جاء القهوجي بالشاي ووضعه على المنضدة أمامهم ورحل جريًا فتناول (جابر) كوب الشاي يتأمله وهو يقول:

- عايزيين وإحنا مروحين نعدي على (أبو آية) الفرارجي اللي في أول حلوان، أنا وصيته على شوية بط وحمام، فكرني ناخدهم منه، أصل مش كل حاجة هانسيبها على (نهلة)، البت اتروشت من ساعة ما مراتك وعيالك بقوا قاعدين عندي.. بمناسبة (نهلة).

ارتشف من كوب الشاي جرعة قليلة ونظر لأحمد مبتسمًا وهو يقول:

- (نهلة) هي اللي اديتك الورق صح؟

- ما أعرفش، أنا شُفته مع أصحابي وأخدت نسخة.

- ليه؟

لم يجب (أحمد) عن السؤال بل نظر لسليمان يطلب نجدته بعينيه فقال هذا الأخير:

- بلاش جو الاستجواب ده يا بابا.

- وبلاش جو المخابرات اللي انتوا عاملينه، هتستفاد إيه لما تعرف معلومات مش هتعمل بيها حاجة.. يعني هتروح مثلًا البيت وتدخله؟

- حضرتك مش عايز تفسرلي أي حاجة، ليه (جعفر) و(صفاء) نسخة منك إنت وماما في شبابكم؟ ليه فيه اتنين...

قاطعه (جابر) بصوت هادئ:

- هافسرلك كل حاجة الليلة، بعد ما الشباب يدخلوا البيت.

نظر بعد عبارته لأحمد وقال:

- على فكرة يا (أحمد) صاحبك (راضي) جالي البيت من ساعة وسألني إمتى هتدخلوا تصوروا تاني في بيت (أبو خطوة) فقلتله الليلة، وهو عندي في البيت دلوقت و(عمرو) المصور بعت جبته من بيته وزمانه عندي هو كمان، ناقص إنت و(حسام).. لو إنت مش عايز تدخل معاهم الليلة براحتك.

حانت من (أحمد) نظرة للرجال الواقفين خلف (جابر) فضحك هذا الأخير وقال:

- إوعى تكون فاكر إن الولاد دول جايين ياخدوك بالعافية،

إحنا مش في فيلم عربي، دول أصحاب ومعارف (سليمان) وجايين يحاولوا يهدوه لو اتعصب.

انفجر (سليمان) فجأة وهو ينهض ويصرخ:

- كفاية بقى، بيت إيه اللي إنت مهووس بيه وعمال تؤمر الناس يعملوا إيه ومايعملوش إيه.

أمسك (جابر) بيد (سليمان) ليجبره على الجلوس ثانية لكن هذا الأخير أفلت يدَه بغضبٍ وأشار بها للرجال الواقفين خلف (جابر) وهو يقول:

- وجايبلي ناس من الإدارة علشان يخوفوني.. تحب أحبسهوملك كلهم دلوقت بتليفون.

قال أحد الرجال بأدب وهو يشير بيديه:

- اهدى يا (سليمان) بيه.. عيب كده دا إحنا خدمنا مع بعض قبل كده.

أخرج (سليمان) هاتفه المحمول وهو يقول بغضب محدثًا نفسه:

- محدش هايدخل أم البيت ده تاني إلا لما أفهم.. أنا هاوريكم.

نظر (جابر) خلفه وصاح بأحد الرجال:

- خد منه التليفون.

تردد الرجل وهو ينظر حوله لزبائن القهوة الذين صمتوا فجأة خائفين مما يحدث أمامهم.

- يا (سليمان) بيه بلاش تكبر الحكاية وتعالى نتفاهم بره القهوة.

قالها الرجل لسليمان الذي وضع الهاتف المحمول على أذنه وهو يتحدث مع الطرف الآخر:

- لو سمحت سجل العنوان اللي هقوله ده وابعتلي أقرب دورية ليه، فيه ظباط بيتدخلوا في عملية ضبط خاصة بالإنتربول وبيهددوا..

صرخ (جابر) في الرجال:

- قلت خدوا التليفون منه.

انقض اثنان منهم على (سليمان) وسحبا منه الهاتف المحمول وهو يتعارك معهم فنهض (جابر) واقفًا أمام (سليمان) صانعًا بجسده حاجزًا بينه وبين الرجال كي ينتهي العراك، خفض (سليمان) يده و(جابر) يربت على كتفه بحنان وهو يقول:

- آسف يا ابني.. حقك عليَّا، اخرج معاهم دلوقت وهتفهم كل حاجة الليلة.

لم يهدأ (سليمان) لكنه قرر الخروج من المقهى والرجال يلحقونه بينما جلس (جابر) وعادت ابتسامته وهو ينظر إلى (أحمد) ويقول:

- (سليمان) هايخرج دلوقت وهايطلب من المراقبة اللي على (حسام) اللي هو حاططها إنها تعرفه مكانه، علشان يروح يحذره.

ثم صمت والتقط كوب الشاي ثانية وأكمل:

- لكن هايحذره من إيه؟ هو مش فاهم حاجة، ولا إنت فاهم.

تشجع (أحمد) وقال:

- أنا فاهم إنك حاجز أصحابي عندك.

نظر (جابر) لساعة يده وأخرج علبة سجائره وهو يقول:

- لا.. أنا يهمني (حسام) هو اللي يدخل، إنتوا مش مهمين أوي، لكنه مش هايجيي إلا بيكم.. على فكرة طعم الشاي ده وحش أوي، ها ما قولتليش هاتيجي عندي البيت علشان نتحرك على وجهتنا والا لأ؟

- لأ

نهض (جابر) وأخرج بضعة أوراق مالية من جيبه وضعها على المنضدة وهو يقول:

- براحتك.. بس بلغ (حسام) يجيلنا عند بيت (أبو خطوة) الليلة علشان ندخل هناك.

رن جرس هاتف (جابر) المحمول فأخرجه في نفس اللحظة التي قال فيها (أحمد) فجأة:

- أنا هاجي معاك وأدخل.

ابتسم (جابر) وهو يخرج نظارته الطبية ويرتديها وهو يقول مطالعًا موبايله:

- إيه خُفت على أصحابك؟

ردَّ على الهاتف المحمول وتلقى المكالمة والجدية ترتسم على وجهه بسرعة وهو يقول:

- واقف بيعمل إيه؟.. إمممم طب اوصفلي لابس إيه؟ إمممم بقاله قد إيه؟ ساعة؟ طب ومحدش بلغني ليه في التليفون؟

أنهى المكالمة ونظر لأحمد قائلًا:

- الظاهر إننا مش محتاجين (حسام) يجيلنا.. إحنا اللي هنروحله.. لو قررت خلاص تعالى معايا.

سار بعدها ناحية باب المقهى و(أحمد) ينهض وراءه كالمنوم مغناطيسيًا.

***

قلت حركة السيارات قليلًا على الطريق السريع الذي يطل عليه منزل (أبو خطوة)، الليل أسدل أستاره على المنزل وأغرقه في الظلمة برغم أضواء السيارات المارة من أمامه.

وقفت أنا أمام منزل (أبو خطوة) أدقق في كل حجر فيه بلا معنى، لا أعرف كم مر عليَّ وأنا هنا، فقد خرجت من قرية (أبو النور) مشيًا على الأقدام وسرت بمحاذاة الطريق السريع ناحية (باسوس)، هذا الطريق مشيًا على الأقدام يأخذ أكثر من

ساعة ونصف في تقديري، لكني توقفت عند كافتيريا جلست بها لثلاث ساعات أحاول ربط خيوط القصة، أخبرني (راضي) هاتفيًا أنه رآني أتحرك من أمام منزل (جابر) بحلوان وأنه تحدث معي لكنه أقرَّ أن هيئتي متغيرة جدًّا، بعدها تلقيت اتصالًا آخر يخبرني بأنه يجلس بجانب دكتور (جابر) وأنهم سيدخلون الليلة المنزل ويجب أن أذهب لهم، فهمت من طريقته في الكلام أنه شبه محتجز.. هل سيدخلنا (جابر) عنوة لمنزل (أبو خطوة)؟؟ وعدته بحضوري وأغلقت الهاتف وأكملت تفكيري.

هناك عبارة أعرفها ولا أتذكر سبب تكونها بعقلي، عبارة تتعلق بالكتابة القصصية، تقول إن الأدب واقعي، والواقع خيالي، ما يحدث حولي يمتلئ بالخيال واللا معقولية، أعرف أن الواقع يحتمل أغرب الأشياء مثل أن تقابل صديق طفولتك في المدرسة في الصين بالمصادفة.. احتمال حدوث تلك المقابلة في قصة أدبية غير وارد وغير منطقي بل وهزلي بل على الكاتب أن يخلق سببًا لحدوث تلك المصادفات، أما الواقع الذي نعيش فيه فيمتلئ بالأحداث المستحيلة.. لكن المستحيلات زادت كثيرًا فيما أراه الآن، حتى إنني أشعر بأني داخل قصة يكتبها كاتب بائس يجلس أمام ومبيوتر قديم بملابس النوم وبجانبه كوب شاي بارد يرتشف منه ويهرش في رأسه المنكوش وهو ينظر للسقف من وقت لآخر مدعيًا العمق ويحاول أن يعقد الأحداث على أبطاله.

قصة مجنونة يختلط فيها الواقع بالخيال، فإن أردت التمييز بينهما.. عليك بتصديق ما يكذبه عقلك، فهل أصدق؟

مددت يدي ألمس الباب المعدني البارد وأهزه فانفتح الباب معي، أعلم أنه مفتوح منذ جئت إلى هنا لكني متردد في الدخول، (جعفر) طلب مني الهروب وصدق لأن (جابر) ينوي إجبارنا على الدخول، عليَّ أن أصدق افتراض السفر عبر الأزمنة، برغم عدم اقتناعي بعقلانيته، ماذا لو سافرت للماضي وقتلت والدي قبل أن ينجبني؟ هل سأختفي أنا في المستقبل؟ إذا اختفيت في المستقبل كيف عدت أنا لأقتل والدي؟ إنها المفارقة غير المنطقية في السفر عبر الزمن، ربما لست عالمًا أنظر للمعادلات الرياضية وأهز رأسي وأقول بثقة أن السفر عبر الزمن جنون لكني أعتمد على المنطق والعقل الذي أمتلكه.

ولكن أين المنطق فيما يحدث؟؟ فتحت البوابة للمرة العاشرة ولكن هذه المرة خطوت لداخل المنزل.. لا أعلم من أين أتيت بتلك الثقة وأنا أخطو في الساحة الخارجية الصغيرة متجهًا لباب المنزل.

أعتقد أنه نوع من المخدر يفرزه المخ يعطيك اطمئنان لحظي في إتخاذ القرارات بافتراض أن لا شيء يمكن أن تخسره، لو كان هذا المخدر موجودًا في الحقيقة ربما كان هو السبب في قرارات الحرب والقتل والانسحاب والمذابح وكلها قرارات تكتشف لم تكن أكثر من حمار عند اتخاذها.

هذا هو ما شعرت به وأنا أقف أمام البوابة الثانية للمنزل، إنني حمار بالغ.. حتى تخيلت أذني قد استطالت كالحمار وأنا أسمع صوتًا خارج بوابة المنزل الحديدية، صوت هدير موتور سيارات تتوقف أمام المنزل.. كالمجذوب دخلت المنزل لا يهمني أي صوت أسمعه الآن، دخلت الشقة الموجودة على اليسار والتي بدأت فيها كل الأحداث، بحثت بيدي على الجدران الأسمنتية عن موضع زر الإضاءة وضغط عليه ليسطع ذلك المصباح المتدلي من السقف.

الرائحة الخانقة والدفء القوي كما هما منذ آخر زيارة، لا وجود للخوف بقلبي مما يزيد من فرضية الحمورية التي تتملكني، اتجهت للغرفة التي حددها (فرغلي المستكاوي) في الرسالة العجيبة التي أرسلها لي ووقفت في ظلامها.. ما الخطوة التي علي فعلها الآن؟؟

اختفى الحمار المسيطر على أفعالي وبدأ الخوف يدب بخطوات ثابتة لقلبي.. ماذا لو انتهى عمري فجأة الآن، لست مغامرًا إلى هذه الدرجة التي تصور لي أن أموت في مغامرة ما، أنا أدخل المغامرة إن ضمنت حياتي، لكن...

أصوات سيارات أخرى تتوقف بجانب المنزل ورجال تتحدث بصوت عال.. ألم برأسي تزامَن مع بخار فجأة صعد من الأرض، للدقة ليس بخارًا بل هو هالة بيضاء تتحرك كالبخار،

أخذت تدور في الهواء أمامي، الهواء يتأين ويشحن بالكهرباء كما عرفني (راضي) من قبل.. هيئة رجل تتشكل أمامي في وسط الغرفة يرتدي ملابس سوداء، لكنه يستند على ركبتيه وكفيه ويبدو عليه الإعياء.. هو.. إنه (جعفر) وعلى وجهه تظهر حروق وتختفي بسرعة، ينظر لي لاهثًا ويقول:

- أنا متأكد إنك هتلاقي طريقة.. أنا واثق فيك.

فجأة سطعت أضواء متباينة وزادت كثافة البخار في الغرفة وتشكل شيئًا ما يشبه الرجل بجانب (جعفر)، رجل يحيطه الدخان ولا تظهر ملامحه بل يظهر ككتلة دخان يحمل بيده شيئًا ما، هذا الرجل التحم حرفيًا بجسد (جعفر) كأنه دخله و(جعفر) يتألم ويصرخ واختفى جسده ولا يبقى مما حدث إلا أبخرة دخانية، اختفى الألم من رأسي فجأة غير أني قد تعودت عليه ولم أنتبه له وأنا أشاهد ما شاهدت.. في نفس اللحظة شعرت بألم في قدمي اليمنى، نظرت لها فوجدت بقعة تشتعل بسروالي، أطفئتها وأنا أصرخ خوفًا وأحرك يدي على كامل جسدي حتى لا أفاجأ بنيران أخرى.. والحمد لله لم أجد لكن أنفي التقطت رائحة شياط شيءٍ يحترق عرفت بعدها أن شعر جسدي اختفى في بعض المناطق.

أصوات الرجال خارج المنزل دخلت في نفس اللحظة، على الأرجح صوت صراخي جذبهم، من موقعي في الغرفة رأيت

(جابر) يدخل لصالة الشقة يتبعه (جعفر) وفتاة أدركت بعد لحظة واحدة أنها (صفاء)، كان يحمل بيده مجموعة أوراق وهو يخاطب أشخاصًا في الخارج ويقول بصوت مرتفع كي يسمعوه:

- استنوني انتوا بره وأنا هاخلص معاهم وأرجعلكم.

أنهى عبارته وتوقف عن الحركة ينظر للغرفة التي أقف بها وعلى وجهه صدمة لم يخفها.

- (حسام)؟؟؟ إنت... إنت (حسام) مش كده؟

تكلمت ولكن خرج صوتي متحشرجًا:

- أنا سبقتكم على هنا.. إيه اللي جاب (جعفر) و(صفاء)؟

خطا ناحيتي حتى دخل الغرفة وهو يجول ببصره يتفحصني من الأعلى للأسفل وهو يقول:

- هافهمك كل حاجة بعد ما أخلص كلام مع (جعفر).. تقدر تستناني بره مع أصحابك؟

أصدقائي بالخارج؟ هل كانت أصواتهم هي التي تصل لي عالية؟ لكني لم أميز أي صوت منهم!!!، خرجت من الغرفة فسمعت صوت (جابر) يقول بشك:

- حصلك حاجة هنا قبل ما ندخل؟

نظرت لعينيه التي ذكرتني بعيون الثعالب وقلت بنفس الصوت المتحشرج:

- لا.

التفت إلى (جعفر) الذي نظر لي نظرة عتاب لأني لم أستمع لكلماته، أما (صفاء) فقد نظرت لي برعب يختلط بعدم فهم، خرجت بعدها من باب الشقة وصوت عبارة غير واضحة يقولها (جابر) لأحدهم سمعت منها كلمات (شهادات ميلاد) (ورق تعليمات) وأشياء أخرى كأنه (جابر) يحذرهما أو يؤكد عليهما شيئًا ما.

نزلت درجات السلم لأخرج من باب المنزل لأجد أكثر من عشرة رجال يقفون في ساحة المنزل لم أعرف أيًا منهم في البداية لكنهم ينتمون إلى شيء ما عائلة أو صداقة مشتركة، حتى لمحت أحدهم ينظر لوجهي بتفرس، عرفته بصعوبة وسط الظلام، (سميح) قريب (جعفر) الذي قابلته من قبل من منزلهم بقرية (أبو النور).. بجانب الرجال يقف (راضي) و(عمرو) المصور و(أحمد عصفور) وشخص آخر بلحية خفيفة ونظارة طبية، يقفون وعلى وجوههم ترتسم نفس النظرة التي هي أقرب للخنوع أو التسليم بالأمر الواقع، وبجانبهم على الأرض بضع حقائب كبيرة على إحداها علامة شركة لتصنيع الكاميرات السينمائية.

انضممت لهم وإن شعرت أنهم يقفون تحت إمرة بقية الرجال بقيادة (سميح)، قلت بصوت منخفض:

- إيه الشنط اللي جنبينا دي؟

ردَّ (راضي) باستخفاف:

- أكيد مش هدومنا، إحنا مش طالعين جمصة أسبوع، دي معدات تصوير (جابر) بيه إدهالنا علشان نستخدمها في البيت.

نظرت للشخص الذي لا أعرفه فرفع (راضي) إصبعه باتجاهه وهو يقول:

- أستاذ (عمر أبو خطوة).. من اسمه حاسس إنه ليه صلة قرابة بصاحب البيت.

- لا يا راجل.

قلتها وأنا أوجه جسدي ناحية (عمر) الذي مدَّ يده لي مصافحًا ببرودٍ وبنوعٍ من التردد لم أفهمه وخاصة أنه تفرس في وجهي كثيرًا كأنه يبحث عن شيء فيه.

- أهلًا يا أستاذ (حسام).

- حضرتك تعرفني؟

- اتحكالي عنك من (جابر) بيه.

- حضرتك تعرف إيه اللي هايحصل دلوقت؟

- أنا أعرف اللي مطلوب مني أعمله ومش هاقوله إلا في وقته.

قال (أحمد):

- ماتفكرش تهرب يا (حسام) علشان الناس دي ها...

قاطعته بنفس الصوت الخافت:

- محدش هايهرب.

اقترب هو من أذني وقال:

- بعد ما ندخل البيت ويسيبنا لوحدنا أنا محضر خطة نخرج بيها.

ابتسمت فهو لم يفهم بعد أبعاد ما يحيط بنا.

- أنا إيه اللي جابني معاكم بس ما أنا كنت مرتاح ومتكيف.

قالها (عمرو) المصور وهو يدب بقدمه على الأرض كالأطفال فأمسكته من ذراعه ضاغطًا عليه وأنا أقول:

- اثبت يا ابني مش هايفيدنا أي كلام دلوقت.

نظر هو لراضي بغضب وقال:

- كله من أبو شنب ده، دا حتى شنبه حلقه وبقى..

- إوعى تقولها يا (عمرو) وإلا وحياة شنبي مش هايبقى فيه صحوبية بينا.

قالها (راضي) رافعًا إصبعه ناحية (عمرو) الذي رد وهو يلوح بيده مستهزئًا:

- هو إحنا أصحاب أصلًا!

- إيه الإحراج ده.

نطق (راضي) العبارة في لحظة خروج (جابر) من المنزل وهو يشير لنا بيده لنتبعه، رفع أصدقائي الحقائب بطريقة ميكانيكية وساروا ليدخلوا من باب المنزل و(جابر) يسبقنا لداخل الشقة وأنا أهرول خلفهم بعد أن أمعنت النظر في الرجال الواقفين بلا تعبير على وجوههم.

داخل الشقة وضعوا الحقائب وأنا أبحث عن (جعفر) و(صفاء) بعيني بلا جدوى، تنحنح (جابر) وهو يقف بمنتصف صالة الشقة وتأمل وجوهنا بلا حديث كأنه قائد حربي يستعد لخطبة حماسية وسط جنوده.. قال بصوت قوي النبرات هادئ:

- مين عايز يسأل أسئلة فيكم؟

- يا سلام!

قالها (راضي) فنظر له (جابر) نظرة حادة لكن (راضي) لم يتوقف وقال بسخرية:

- حضرتك لا مؤاخذة خطفتنا علشان نخش البيت النحس ده و...

قاطعه (جابر):

- اللي يحب فيكم يمشي يتفضل.. ما عدا (حسام).

لم ينظر لي وهو يقول ما قاله لكني مارست نوعًا من التحدي على أمل استفزازه، وهو أن أصمت وأنظر بعيدًا في حين كان

يجب عليَّ أن أسأل، بعد صمت قليل نظر لي (جابر) مندهشًا وهو يقول:

- إنت تعرف إيه عن اللي هتشوفه؟

- أعرف إن عندي فضول.

تراجع (عمرو) المصور بضع خطوات كأنه ينوي الخروج من الباب فنظر له (جابر) قائلًا:

- اتفضل امشي لو عايز.

توقف (عمرو) كأنه شعر بالحرج من تراجعه على الرغم من عدم لومي له، الغريب أنه تقدم خطوات للأمام ليعود لنفس موضعه الأصلي.

- إيه المطلوب مننا دلوقت؟

قالها (أحمد) فردَّ (جابر):

- تحافظوا على المعدات اللي معاكم زي عنيكم.

- وهنعمل بيها إيه؟

- (عمر أبو خطوة) هايقولكم وهو اللي هيتصرف.

- مش دي معدات تصوير؟ إنت عايزنا نصور حلقة ولا عايز إيه؟

إضاءة بيضاء تظهر من الغرفة المجاورة وألم الرأس قد عاد ولكن بشدة أكثر وكلنا نمسك برأسنا وننظر باتجاه الضوء

الأبيض المحاط الذي ظهر فيه لون أزرق وأبخرة يتجسد وسطها رجل بلا ملامح، نفس المشهد تقريبًا الذي رأيناه آخر مرة كنا في هذا المنزل، صرخ (جابر) فينا بأن نتمسك بالحقائب، بدافع الخوف تمسك (أحمد) و(راضي) و(عمرو) و(عمر) بالحقائب كأنهم اعتقدوا بأنها ستنجيهم.. ضوى الضوء الأزرق داخل الأبخرة البيضاء بشكل متقطع والأبخرة تخرج من الغرفة إلى الصالة وتحيط بأحمد و(عمرو) و(عمر) ثم تنسحب للغرفة وتختفي الأبخرة ويختفي معها أصدقائي بحقائبهم التي أمسكوا بها.

سقط (جابر) أرضًا على ركبتيه يلهث وهو ينظر ناحية الغرفة التي عادت الأبخرة والضوء الأبيض والأزرق يظهر بها وهو يغادر متجهًا ناحيتي أنا و(راضي)، نظرت لجابر الذي بادلني نظرة غريبة، نظرة أقرب للغضب أو الكره.

أحاطت بي الأبخرة ولم أعد أرى (راضي)، دفء أحاطني تحول لنار حارقة بأعضائي.. أكاد أجزم أنني لم أشعر بهذا الشعور من قبل، حاولت التنفس فقط لأكتشف أن أنفاسي غير موجودة، اختفى الدفء ووجدت جسدي خفيفًا كأن لا أرض تحتي متعلقًا بالهواء، الألم برأسي زاد لثانية ووصل لأعلى مراحله حتى أحسست بروحي تسحب مني بقوة لأسفل، كأني داخل مصعد يهبط بي بجنون، فجأة اصطدمت بالأرض على وجهي

واختفت الأبخرة من حولي وزال الألم من رأسي مخلفًا القليل منه.

أنا الآن في قاعة كبيرة مبنية بالحجر، ذات سقف مرتفع، بناء فرعوني كأنه معبد أو مقبرة، وفي حوائط القاعة أجزاء تظهر من كرات زجاجية تضيء المكان وجزء من كرة سوداء يبرز، رفعت رأسي أنظر للسقف فنزلت حبات عرق على مقلة عيني أجبرتني على غلقها، استندت على يديَّ لأنهض فشعرت أن العرق يغرق ملابسي بشكل مبالغ فيه، سمعت صوت (راضي) بجانبي يقول:

- والله العظيم إحنا بنسافر في الزمن.. يا رب ياكلني قطر لو كنت حمار.

نظرت ناحيته، كان نائمًا على ظهره غارقًا في العرق والأتربة تملأ شعره وهو ينظر لي ويمد يده لأمسك بها وأنهضه.

- دا مش سفر في الزمن يا (راضي)

نظرت أنا و(راضي) ناحية قائل العبارة لأجده (جعفر) بملابس سوداء وصورته تهتز كأن ذراته ترتعش كلها، يقف عند جزء من القاعة وخلفه رسمة فرعونية لم أنتبه لها.. نهض (راضي) مترنحًا وهو يقول:

- ما تقولنا إنت إيه الحكاية وتخلصنا.

لم أتيقن من (جعفر) إن كان يبتسم أم لا بسبب اهتزاز صورته الذي توقف وهو يقول:

- حتى إنت يا (راضي) صعب تفهمني.

ردَّ (راضي) بيأس:

- يابا الحاج جرب بس ومش هتندم.

وزع (جعفر) نظراته علينا وهو يقول:

- احنا واقفين في حاجة زي المفاعل النووي، بناها المصريين من 11 ألف سنة.

جلس (راضي) على ركبتيه إرهاقًا وهو يهز رأسه ويقول بيأس:

- آه.. فيلم خيال علمي يعني.. طب طالما هي هيصة بقى بتقول إننا ماسافرناش في الزمن ليه؟

- علشان اللي حصل دلوقت اني جبتكم من بيت (أبوخطوة) ونزلتكم تحته في المقبرة.

- يا عم ارسى على رأي.. دي مقبرة ولا مفاعل نووي.

- مقبرة واحد من التاسوع المقدس.

- تاسوعة ولا عاشورة.

قالها (راضي) بملامح حزينة لكن (جعفر) ابتسم بشكل واضح وهو يقول:

- من حقكم تسألوا قبل ما تروحوا المكان اللي سبقكم ليه أصحابكم.

- إحنا نعرف بعض من زمان؟

قلتها متحملًا العرق والألم الجسدي و المشاعر المختلطة التي انتابتني فردًّ:

- في زمن تاني وأرض تانية اتربيت أنا وإنت و(فرغلي المستكاوي) في (باسوس)، إنت كنت عايش فيها على فكرة، كلنا كنا أصحاب، وكل واحد عرفني زمان كانت بتجيله أفكار وخيالات عني أو عن حياته الحقيقية.

لاحظت أن (راضي) انتبه لكلماته فعلًا حتى أنه قال وهو يعاود النهوض:

- إنت بتتكلم عن عالم موازي ولا إيه؟

- سيبك من التسميات، هتستفاد إيه لما تدور على اسم مجعلص.

- إنت بتتحرك في الزمن؟

قلتها وأنا أزيح العرق من على وجهي فنظر (جعفر) حوله وقال:

- المشكلة إني أقدر أتحرك في الزمن لكن مش قادر أغير فيه، ولما عملت تغيير كبير الزمن صنع زمن جديد، اللي هو زمنكم.

- خط زمني!! دا كلام فاضي يعني إحنا مش حقيقيين؟

قالها (راضي) وهو يلوح بيده اليمنى معترضًا:

- إنتوا حقيقيين مؤقتًا ومهمتي إني أحافظ عليكم وأثبت أحداث الزمن بتاعكم.

لم أفهم بعض كلماته لكن (راضي) من تعبيرات وجهه يبدو لي أنه فهم المقصود مع عدم تصديقه له، لم أفكر كثيرًا لأن (جعفر) قال:

- مش زمنكم لوحده اللي بحاول أخليه حقيقي، في زيكم تاني.

- وسيادتك بتتحرك فيها عادي كده قشطة؟

قالها (راضي) فابتسم (جعفر) ثانية وهو يقول:

- علشان زمانكم يستقر لازم يتعدل من نقط أبعد، ولأني ما أقدرش أبعد عن البيت ده أكتر من ساعة أو اتنين بزمنكم فمش هاعمل أي تغيير، التغيير هايصنعه (فرغلي) صاحبنا يا (حسام) في الوقت اللي ظهرت فيها عيلة (السلاموني) في قرية (أبو النور)، مهمة (فرغلي) إنه يقتل اللي هيأسس العيلة دي.. لكن مهمته فشلت وماعملش تغيير حقيقي ولسه زمانكم بينهار، (جابر) قالي إنه بعت رسالة ليك علشان عايزك هناك.

- وأنا إيه المطلوب مني؟

نظر لي (جعفر) فترة أطول وكأنه يفكر بقول شيء، لكنه تراجع عما أراد وهو يقول ضاغطًا على كلماته:

- إنك تصلح الأخطاء وتثبت الزمن بتاعكم، بأي طريقة.

عبارته تحمل شيئًا ما لم أفهمه، دخل ممرًا كبيرًا وخرج حاملًا قماشة سوداء اللون فقال (راضي) بتلقائية:

- إيه الملاية اللف دي؟

اختفى (جعفر) من موضعه وظهر أمامنا فتراجعت أنا مصدومًا وهو يقول:

- دي يا (راضي) بلغتك مشحونة بحاجة زي الكهربا، هاتحميكم لما نتحرك في الزمن.

- حلاوتك.

قالها (راضي) و(جعفر) يفرد تلك العباءة الكبيرة ويلف بها نفسه وهو ينظر لي ويقول:

- طريقتك في التغيير مش هتعجبني، لكن أنا موافق يا (حسام).. افتكر كلامي.

ألقى العباءة علينا نحن الاثنين فصرخنا ألمًا من اللهب الناري الذي غطانا وهذا هو أقل وصف يمكن وصف تلك اللحظة به، لا لم أشعر بشيء بعدها لأني فقدت الوعي.

***

نهض (جابر) من على الأرض ينفض الغبار عن بدلته ويفرك عينيه بيده وهو ينظر حوله لصالة الشقة بمنزل (أبو خطوة)،

اختفى فريق التصوير ومعهم (حسام)، خطا وهو يتألم من تشنجات بسيطة بظهره وهو يتجه لباب الخروج لكنه توقف مفكرًا، بدل طريقه ودخل إلى الغرفة المجاورة التي يظهر منها (جعفر) دائمًا، صرخ قائلًا:

- (جعفر).

مرت دقيقة تحرج (جابر) من أن ينادي عليه ثانية، لكنه استجمع شجاعته وقال بصوت أكثر انخفاضًا.

- مش هامشي إلا لما أشوفك.

مع نهاية جملته ارتفع عمود دخان أبيض اللون وظهر (جعفر) بملابسه السوداء ناظرًا إلى (جابر) المتردد وهو يقول:

- مش مطلوب تدخل البيت إلا في المواعيد المطلوبة منك.

مسح (جابر) على رأسه ونظر له قائلًا:

- أنا دماغي فيها أفكار مخوفاني.

لم يرد (جعفر) الذي اهتزت صورته لثانية وتوقفت، فأكمل (جابر):

- إنت وصلت (جعفر) و(صفاء) للخمسينات؟

- إنت عارف إجابة السؤال.

- تفتكر المرة دي هايقدر (جعفر) لما يتحول لشخصيتي ما يغلطش غلطاتي؟

- اسأل نفسك لما (جابر) اللي قبليك جالك وعلمك تكون زيه لما توصل للماضي قدرت تغير؟

قالها (جعفر) بوجه كالحجر، بلل (جابر) شفتيه بلسانه وقال وعينيه تتحرك في كل مكان بلا هدى:

- أنا حاولت أعمل كل حاجة، إنت عملت زمن جديد لكنه بيقفل نفسه علينا، حتى لما درست ميكانيكا الكَم ما وصلتش إلا لمشاكل، إنت عملت عالم جديد كلنا عايشين فيه، ولو نجحنا إننا نخليه هو العالم الأساسي فده معناه إن العالم الحقيقي هاينهار.. أنا بقيت أشك إننا مجرد حلم أو كابوس فعقلك.. عمرك فكرت في حاجة زي كده؟

- (جابر)، العالم اللي إنت فيه إدراكك هو اللي صانعه.

- تقصد إدراكك إنت يا (جعفر).. إنت اللي في العالم الحقيقي، وإدراكك هو اللي صنع العالم بتاعنا.

- إنت مش حلم ولا حياتك كابوس.. مش إنت استمتعت بيها؟

صمت (جابر) ناظرًا للرمال التي تغطي الغرفة، رد بعد ثوانٍ:

- هايحصل إيه لو قدرنا نجبر الزمن إنه ياخد الوقت اللي أنا عايش فيه ده ويخليه الوقت الحقيقي؟ زمنك الحقيقي.. اللي بدأت فيه كل حاجة هاينهار؟

- مش هايبقى منه غيري، ومحدش هايفتكر حاجة إلا أنا، كل اللي حواليك هايعيشوا بشكل طبيعي.

- ولو فشلت؟

- هارجع بالزمن في وقتي الحقيقي وأغير من جديد وأعمل عالم جديد وأحاول معاه تاني.

- لحد إمتى؟

- إنت عايز (صفاء) تكون ميتة؟

ابتسم (جابر) وقال:

- (صفاء) ماتت فعلًا في زمنك الحقيقي، إحنا مجرد أخطاء في زمنا بنحاول..

قاطعه (جعفر) قائلًا:

- إيه السر اللي إنت شايله وعايز تقوله.. سر يخص (حسام).

اتسعت عينا (جابر) ورفع رأسه ببطء ينظر لجعفر.

- (حسام) عايز يبني غرفة زي...

قاطعه (جعفر) بصوت قوي:

- مش عايز أعرف.. إنت بتثق في (حسام) وأنا واثق فيه.

- (حسام) كان بيزورني من الماضي.

- أنا اللي وصلتهولك.

- بس إنت ماتعرفش هو عايز يعمل إيه.

- يمكن أكون متوقع، كل واحد يحاول بطريقته، سيبه يحاول زي ما إنت بتحاول.

- (حسام) عايز (عمر) ياخد مكانك.

تنهد (جعفر) وقال:

- مابقاش ينفع، سيبه يحاول.

- إنت بتفكر في إيه؟

- بفكر إني مش إله.. ومش كل حاجة بتحكم فيها.. زي ما باديك فرصة تحاول تغير هو كمان معاه فرصة.

- بس أنا مش هاسيبه يعمل اللي هو عايزه.. ولا إنت هاتسيبه، الجثث اللي ظهرت قدام البيت السنين اللي فاتت أنا عارف هي بتاعة مين، وعارف إنك السبب فيها، يبقى بلاش تمثل قدامي دور الحكمة.

- وطالما إنت عارف دي جثث مين بعتهم لقدرهم ليه؟

لم يرد (جابر) و(جعفر) يلفه البخار الأبيض ولون أزرق ينبض حول (جابر) و(جعفر) يختفي.

***

الفصل التاسع

مع الباشا

1836

منزل أبو خطوة

- اصحى يا أسطى وخلصنا.

العبارة تأتيني لتوقظني من النوم، نبرة (راضي) وحوله أكثر من صوت يتكلم، فتحت عيني بتثاقل، أين أنا؟ لحظة، هذا ليس منزل أبو خطوة بل هو ساحة فارغة والمباني تحيط به، ها هو (راضي) يقف ويتحدث مع (أحمد) و(عمرو) المصور، جميعهم تغطيهم الأتربة والغبار، لكنهم بصحة جيدة.

- مش عايز شغل مجانين يا (راضي).. إحنا اتخطفنا.

قالها (عمرو) بوجه محتنق وهو يقرب رأسه من رأس (راضي) الذي قال:

- أنا غلطان (حسام) هايفهمك لما يصحصح

- بلا (حسام) بلا زفت أنا خارج مروح

أمسك (راضي) بيد (عمرو) وهو يهدئه قائلًا:

- يا عم نهارك أبيض.. دا أنا بهزر معاك، كلنا هنخرج دلوقت مع بعض.

نهضت أنفض الأتربة عن جسدي ودوار يعتل برأسي، نظر لي (راضي) قائلًا بدهشة:

- إنت مش هترجع؟

هززت رأسي غير مدرك لما يقول فأكمل:

- دا احنا كلنا لما فوقنا رجعنا.

لم أشعر بما يتكلم عنه، أعدت النظر حولي، لأستكشف الموضع الذي تقف عليه أقدامنا، لمحت الحقائب ملقاة في أماكن مختلفة في تلك الساحة، طراز البناء يشبه منزل (جابر) أو إن أردت الدقة فهو يشبه منازل القاهرة الفاطمية التي بقيت كمزارات أثرية غير أنه يظهر عليه قرب وقت البناء.

- إحنا فين؟

قلتها ورأسي يدور في كل مكان فقال (راضي):

- إنت مش حاسس إن الجو سخن حوالينا؟ في الغالب إحنا لسه في بيت (أبو خطوة) بس المباني متغيرة.

- شوف هايرجع يهرتل.

قالها (عمرو) بغضب فاعتذر له (راضي)، بينما أنا نظرت إلى (عمر) الشخص الذي لا أعرفه والذي كان يجلس مفترشًا الأرض ينظر أمامه شاردًا كأن ما يحدث لا يعنيه في شيء.

- إيه اللي هايحصل يا أستاذ (عمر).

نظر لي كأنه يراني لأول مرة.. عدل موضع نظارته الطبية على أنفه وفتح فمه ليتكلم لكنه أمسك رأسه من الألم كذا فعلنا كلنا، ظهر بخار أبيض ثانية وسطنا وغطى (أحمد) و(عمرو) الواقف بجانبه وهما يصرخان حتى اختفى البخار واختفيا معه، تحفزنا في وقفتنا لكننا لم نأخذ ردة فعل ونحن نتبادل النظرات و(عمر) يقف على قدميه بخوف، أتى صوت من خارج المكان الذي نقف فيه ووجدت رجلًا يخرج علينا من إحدى القاعات بلحية صغيرة يرتدي جلبابًا أزرق عليه عباءة غريبة الشكل وعلى رأسه عمامة بيضاء كأنه أتى من إحدى المسلسلات التاريخية، نظر لنا بشك ثم نظر حوله وهو يصرخ:

- إيه اللي بيحصل في البيت؟

أغمض عينيه وأنصت لشيء لا نراه كأنه يستمع له ثم نظر لنا وعيناه تتسعان وهو يقول:

- انتوا مش من وقتنا صح؟

لم يرد أحدنا فأشار بيده ناحية الباب الذي أتى منه وقال صارخًا:

- اجروا وماتبصوش وراكم.

- فيه اتنين جم معانا واختفوا.

قالها (عمر أبو خطوة) فردَّ عليه الرجل صارخًا:

- اهربوا واستنوني برا بدل ما تحصلوهم.

جرى (راضي) للخارج يتبعه (عمر) وأنا أسير وراءهما لكني ما زلت أنظر للرجل الذي قال مخاطبًا نفسه:

- أنا هاوريك يا ابن الصرمة إزاي تلعب بخبيئة (أبو خطوة).

عاد البخار يتشكل أمام الرجل الذي صرخ قائلًا:

- لو مارجعتش مكانك هاجيلك بنفسي.. ابعد إنت مش قدي.

أكملت الجري حتى دخلت هذا الباب لأجد قاعة صغيرة يطل بابها على الشارع.. لم أفكر لأن (راضي) أكمل جريًا وعبر هذا الباب ففعلت مثله وأنا أتجه إلى الشارع و(عمر) بجانبي حتى خرجنا من البوابة إلى الشارع.

بعض الأراضي الزراعية تحيط بنا ورجل يركب حصانًا

يسير مزهوًا في طريق ممهد بأحجار على الأرض، رجل يجر حمارًا تركب عليه امرأة.. الجميع يرتدون ملابس تشبه ملابس الرجل الذي قابلناه منذ ثوانٍ، لكن المارة في هذا الطريق ظلوا ينظرون لنا بدهشة يتأملون ملابسنا.. قال (راضي) مذهولًا:

- مش قولتلكم إننا سافرنا في الز...

قطع جملته لأنه وقع مغشيًا عليه.

***

2004

أمام منزل أبو خطوة

خرج (أحمد عصفور) من باب المنزل لكن وجهه قد تغضن من فعل التجاعيد التي ملأته، ملابسه ممزقة وشعره أبيض اللون يمتلئ بالفراغات، كان عمره قد تجاوز التسعين ولم يستطع السير لكنه تحامل على نفسه ليسير بضع خطوات خارج المنزل، سمع صوتًا من خلفه فنظر لباب المنزل ليرى (عمرو) بعلامات الشيخوخة على وجهه يحاول أن يخطو خارج المنزل، لكنه فشل ووقع ميتًا.

أما (أحمد) فانحدرت من عينه دمعة وهو يعاود السير خطوات للأمام لكنه فشل في التحمل ووقع على ركبتيه ثم

تحشرجت أنفاسه وهو يمسك بكتفه الأيسر ويغمض عينيه مستسلمًا للموت بعد أن مال جسده ناحية اليمين ليقع أرضًا.

***

لن يلومني أحد إن تركت (راضي) مغشيًا عليه ولو لقليل من الوقت كي أكمل تأملي فيما حولي وأتقبل أنني في عصر محمد علي باشا، في البداية أشعر أن الملابس التي يرتديها المارة هزلية بعض الشيء بسبب تعدد ألوانها كأنني أحضر مسرحية تاريخية لفرقة جامعية، إن صح ما أراه فالذي أراه تلفزيونيًا ومسرحية قريب الشكل من الواقع.

خارج المنزل وجدت عربة خشبية مزدانة بالنقوش والألوان ربطت بحصان مسروج بسرج مزخرف بشكلٍ مبالغٍ فيه، العربة لا تشبه (الكارتة) التي أراها في أفلام الأربعينيات عندما يركبها الباشا ليمر على أرضه الزراعية قبل أن يخرج السوط ويضرب الفلاحين، لكن بها قليل من تصميمها، إن كان ما أراه هو خارج منزل (أبو خطوة) فلم يختلف كثيرًا عما سيكون مستقبلًا، (عمر) قرر أن يوقظ (راضي) الذي استفاق سريعًا بعد بضع صفعات محترمة، خرج من باب المنزل الرجل الذي كان يصرخ واتجه إلى العربة التي يجرها الحصان وهو يتسقلها ويقول بدون أن ينظر إلينا:

- إنتوا مصريين؟؟

- آه.

ألقى علينا نظرة أخيرة وقال وهو يمسك بلجام الحصان:

- اركبوا بسرعة.

ساعدنا (راضي) ليتسلق تلك العربة وانحشرنا داخلها والرجل يلسع الحصان فتسير العربة وأنا أنظر حولي أحاول تجميع أكبر قدر من الأشياء، بعد قليل من سير العربة ونحن الثلاثة نطل برأسنا منها كالكلاب التي تنظر من نافذة السيارة.. هب على عقلي خاطر يتعلق بلهجة قائد العربة، لهجته مصرية عادية أفهمها بسهولة، هي نفس لهجتي لكنها أسرع قليلًا وتحمل لكنة بسيطة.. أعتقد أنني تخيلت أن الناس في تلك الفترة تتحدث باللغة العربية الفصحى.

- أنا صاحب البيت اللي كنتوا جواه.. اسمي (عزام أبو خطوة).

نظرت أنا و(راضي) لعمر الذي اكتفى بالنظر لعزام، تشجعت وقلت:

- إنت عايش في البيت ده؟

- لا.. أنا ساكن قريب، بس الروحانية بلغتني إن فيه حاجة بتحصل في البيت

- الروحانية دي قريبتك؟

قالها (راضي) فرد (عمر) ببساطة وهو ينظر خارج العربة.

- الروحانية دي خدمة الجن بتاعته.

ألقى (عزام) نظرة على (عمر) ثم نظر لنا سريعًا وقال مشمئزًا:

- إنتوا نايحيين كده ليه في الكلام؟

- نايحيين!

- بتتمرقعوا في الكلام.

طقطق (راضي) بفمه وهو يقول بغضب:

- لا لا لا يا أبو الكباتن، اظبط كلامك دا إحنا من شبرا.

- شبرا كلها رجالة، وكمان إنتوا لا مربين شنب ولا دقن، مفيش غير الراجل المجدع اللي معاكم ده هو اللي كدة.. انتوا مماليك والا متفرنجين والا خـ....

قاطعه (راضي) بغضب:

- لا دا إنت زودتها أوي وشكلي هاعملها معاك.

سحب (عزام) لجام الحصان فوقفت العربة فجأة وهو يقول:

- والله أعلم إنت بتشتم.

ثم مد يده أسفل مقعده وأخرج مسدسًا مزخرفًا أعتقد أن هذا ما كانوا يسمونه بالغدارة، قال وهو يبحث عن شيء ما أسفل مقعده:

- استنوني حبة الله يكرمكم.

نظرنا له وهو يخرج كيسًا جلديًّا صغيرًا، فتحه وأفرغ منه بودرة رمادية اللون في أحد زخارف المسدس ثم حرك قطعة زخرفية فيه إلى الوراء وهو يقول لنفسه:

- كده تمام..

وجَّه المسدس ناحية (راضي) وقال:

- كنت بتقول إيه بقى يا ابن الوزة؟

رفع (راضي) يده مستسلما

- لو البتاع ده بيضرب نار فأنا آسف، والله كبّرت الموضوع يا (عزام) باشا.

بدا على (عزام) التفكير وهو ينظر لراضي ويقول:

- لولا اني شُفت ده بعيني مكنتش صدقت اللي قالهولي.

- هو مين ده معاليك؟

أبعد (عزام) المسدس وأعاد القطعة الزخرفية للأمام

بموضعها الأصلي وهو يضرب الحصان فتتحرك العربة، وقال ببساطة:

- هاتعرفوا لما تشوفوه.

الصدف أكثر من اللازم فيما أعاصره، لأنني وجدت على جانب الطريق في نفس اللحظة مبنى مليء بالزخارف من طابقين علقت عليه لافتة كتب عليها (كشري الخديو) بدون حرف ياء، رغم غرابة ما أرى لكن لم أشعر بالمصادفة إلا بعد أن قرأت اللافتة على المبنى المجاور له.. (عصائر فرغلي).. إما أن هناك شيئًا في السفر عبر الزمن وإما أن (فرغلي المستكاوي) وضع بصمته في ذلك العصر بطريقة مجنونة.

***

باسوس 1836

على جانب الطريق الذي تجري فيه العربة ذات الحصان وجدت أول أشخاص يرتدون ملابس غير الجلباب، سروال أسود منفوخ كسراويل صيادين السمك مدسوس في حذاء جلدي برقبة طويلة، وصديري مليء بالزخارف الذهبية وطربوش أحمر قصير، كانوا يقفون على جانب الطريق عددهم عشرة أفراد يحملون بنادق بماسورة طويلة ويلوح أحدهم لنا

لنتوقف.. لن أخمن كثيرًا لأعرف أنهم من الشرطة أو الجيش.

- إيه ده؟ لجنة؟

قالها (راضي) فرد عليه (عَزّام) وهو يوقف العربة بالقرب منهم:

- يعني إيه؟ دول نقطة درك (باسوس) علشان تصاريح تحميل العربيات.

- أيوة يعني كمين، والله وحشوني.

اقترب أحدهم ونظر إلى (عَزّام) وصافحه، ومن ثم قال بصوت أجش:

- كيف الأحوال يا معلم (عَزّام)؟!

- على الله.. في نعيم وخير.

نظر الرجل إلى ملابسنا بريبة، ثم سأل:

- مين دول يا معلم؟ مماليكك؟

- دول ضيوف (فرغلي بك المستكاوي).

انتفض الرجل في وقفته، وارتسم الرعب على وجهه، وبقية الرجال ينضمون إليه ليفهموا سرّ تبدل حاله أثناء حديثه معنا، أعتقد أنه لو ذكر له اسم (محمد علي باشا) نفسه لم يكن لينتفض

بهذا الشكل، حاول الرجل تمالك نفسه وهو يسأل بأدب لا يليق بمظهره العسكري وشاربه وذقنه:

- اعتذاري يا معلم (عَزّام).. لكن شكلهم بيقول إنهم مش من البلد و..

- (فرغلي) بك مستنيهم، وإنت عارف إنه هايزعل لو ضيوفه زعلوا.

عند إعادة ذكر اسم (فرغلي بك) انتفض البقية، ولكن الرجل قال:

- لو هما من الفرنج فأنا مضطر أشوف سركي القنصلية بتاعتهم.

- خلاص.. ابعت واحد من اللي معاك يرافقنا لفرغلي بك علشان يشوف التصريح بنفسه، أو ممكن تيجي إنت علشان تاخد قهوتك مع البك نفسه.

تراجع الرجل لا إراديًا خطوة إلى الوراء، وهزّ رأسه موافقًا بأدب جم، وهو يقول:

- ضيوف البك على راسي، اتفضل إنت يا معلم.. بس أنا مضطر أعمل تقرير وأبعت عسكري مراسلة بيه لدار شرطة القناطر.

- اعمل شغلك زي ما تشوف.

قالها (عَزّام) وابتسم لهم، وهو يضرب الحصان فتتحرك العربة، بعد ابتعادنا عنهم قال (عَزّام):

- شكلكم هاتعملولنا مشاكل.

قال (عمر):

- هو اسم (فرغلي المستكاوي) خوِّفهم ليه؟

- اسمه (فرغلي) بك.. أنا عاذرك علشان متعرفوش، البك يبقى من مستشاري عزيز مصر.

مال (راضي) على أذني، وقال برعب:

- هو إحنا رجعنا لعصر النبي (يوسف) ولا إيه؟

- مين عزيز مصر ده؟

قلتها فردَّ (عَزّام) وهو يكاد يلطم:

- بتقولوا من شبرا وماتعرفوش عزيز مصر؟ خادم الحرمين..

- يا عم متلخبطناش إنت بتتكلم عن ملك السعودية ولّا عن مين؟

نظر إليَّ نظرة سريعة، وهدأ وهو يقول:

- (محمد علي باشا).. إنتوا حقيقي مش من عصرنا؟

- إحنا بعديكم بكتير.. بس إنت شكلك عارف كويس لأنك أتعاملت مع اللي حصل معانا في البيت.

قلت العبارة وانتظرت منه الرد، لكنه صمت قليلًا؛ ثم قال:

- (فرغلي) بك حكالي من زمان حكاية عن إنه جه من مستقبلنا، وأنا ماكنتش قادر أصدقه، مستحيل حد غير عيلتي يكون تحت البيت، قالي إن فيه عيل اسمه (جعفر) موجود عند الخبيئة وبيستخدمها علشان يكون زينا.. من أصحاب الخطوة، إنتوا فاهمين ولّا أنا بكلم نفسي؟

تبادلنا النظر إلى بعضنا البعض، ثم قال (عمر):

- تعرف إيه اللي حصل للاتنين اللي كانوا معانا؟

- أخدهم اللي عامل نفسه صاحب الخطوة، ابن الكلب شوفته بعيني وشافني، لكن أنا خوفته.

- خاف من الجن اللي حواليك؟

قالها (عمر) فرد (عَزّام) وهو مشغول في توجيه الحصان إلى الدخول وسط الأراضي الزراعية:

- لا، أنا هددته إني ممكن أجيله، مش هاعمل كده طبعًا لكن لو كلام (فرغلي) بك صح، يبقى هو في المستقبل، وأنا في الماضي، ولو أنا نزلت تحت البيت للخبيئة وبعدتها عن البيت مش هتكون في مستقبله.

أبهرتني كلماته، لا أعرف لمَ اعتبرته غبيًا، أو للحقيقة اعتبرت كلّ من جاء في هذا العصر أغبياء، لمجرد أنهم متأخرون عنا في الوقت، هبت روائح عطرية من المساحات الزراعية الشاسعة حولنا، والفلاحون ينظرون إلينا بدهشة كبقية الناس، حتى ظهر في الأفق بناء ضخم بثلاث قباب عالية يطلّ على النيل، أفخم منزل على الطراز الإسلامي رأيته حتى الآن، أضخم حتى من منزل (جابر) الذي انبهرت به مسبقًا، أمام المنزل رجال يرتدون ملابس كملابس رجال الشرطة في هذا العصر، ويحملون البنادق واقفين في وضع الحراسة، توقفت عربتنا أمامهم فحيًّا أحدهم (عَزّام) الذي قال:

- بلغوا البك إني طالبه في عجل.

فتح أحدهم بوابة خشبية بطول عشرة أمتار، ودخل منها، اختفى لدقائق ثم عاد بعدها جريًا وهو يشير لنا بالدخول، وهو يقول:

- البك منتظرك في قاعة الاحتفالات في السلاملك، هو معاه (أبو حودة) دلوقت.

همس (راضي) بأذني:

- دا الديلر بتاعه والا إيه؟

لا يكف (راضي) عن السخرية في أي موقف، لا أتصوره وهو يموت إلا وهو يلقي بالنكات قبل صعود روحه، ضربت قدمه بيدي ليتوقف والعربة تدخل إلى القصر.. سارت العربة وسط حدائق بحجم حديقة الأزهر في عصري، ونحن الثلاثة لا نتوقف عن النظر بجنون لكل هذا؛ حتى وصلنا إلى بوابة خشبية أصغر يقف عندها رجال آخرون بأسلحة، ومعهم شاب بجلباب وعباءة عليها، قام بتوجيه (عَزّام) ليوقف العربة في موضع مخصص لها، إذًا فهذا الشاب هو السايس في عصرنا حتى توقعت أن يترك له (عَزّام) بضع أوراق مالية في يده عند خروجه لاستلام العربة.

انفتحت البوابة ودخلنا منها إلى مبنى فخيم يمتلئ بالقاعات، و(عَزّام) يسير عالمًا وجهته، ونحن وراءه، حتى دخل قاعة تمتلئ بنوافير المياه، والقناديل المعلقة في السقف، مختلفة الألوان والمقاعد الكبيرة المليئة بأعمال خرط الخشب والأرابيسك، مقاس القاعة يساوي مساحة خمس شقق من شقة أحلامي، وفي أبعد نقطة في القاعة يجلس شاب يرتدي جلبابًا، وإلى جانبه أربع فتيات يظهر شعر كل واحدة منهن متباين اللون والمنظر كأنهن من بلدان مختلفة، يقفن بخنوع..

وأمامهن يجلس على أكبر مقعد في القاعة رجل في منتصف الأربعينيات بلحية منمقة تمتلئ بمواضع الشعر الأبيض وشارب ضخم تظهر فيه شعيرات بيضاء قليلة، ووجه عادي لكنه يحمل هيبة غريبة، جلبابه رمادي اللون، بسيط، بأكمام واسعة جدًّا، وعمامته زرقاء ملفوفة بعناية، يحمل بيده عصا طويلة يضعها بفمه.. طبعًا مع اللحظة الثانية لتأمُّلي تلك العصا المليئة بالنقوش علمت أنها أقرب للغليون؛ لكنه غليون طوله متر ونصف، بنهايته فوهة بها التبغ المحترق الذي يسحبه الرجل إلى صدره، وينفث دخانه الكثيف في الهواء، وهو ينظر إلى الفتيات بخيبة أمل ويقول للشاب:

- إيه يا (أبو حودة) ده ولا واحدة فيهم بتتكلم مصري.

عندما تكلم الرجل عرفته من نبرة صوته المضحكة، (فرغلي المستكاوي)، طابقت صورته التي أعلمها بمظهره الآن، وشعرت أنه يشبهه بالفعل، وهو يقول لإحدى الفتيات:

- إنتي يا ماما.. قولي أحلى مسا عليك.

هزت الفتاة كتفيها بعدم فهم.

- شايف مجايبك يا (أبو حودة).

رد الشاب بسرعة:

- ما يتكلموا باللغوة اللي عايزينها يا (فرغلي) بك، مقامك مش محتاجهم علشان خدمة بيتك.

- لا لا لا... إنت شغلك مبقاش نضيف.

توقف عن الكلام ونظر إلى عَزّام وهو يشير إليه ليقترب، سرنا كلنا نحوه وهو يتأمل فينا؛ حتى تحجرت عيناه عليَّ ثم زاغ بصره في ملابسنا وعاد لينظر إليَّ مرة ثانية، نهض من المقعد ملقيًا بغليونه الغريب، وسار ناحيتي فابتسمت له وهو يصرخ:

- إنت (حسام) ولّا أنا اصطبحت بدري.

فتحت ذرعيّ فاحتضنني لثوانٍ، قبل أن يبعدني ويتأملني، وهو يقول بشك:

- إنت هنا إزاي؟

- (جعفر).

تراجع إلى الوراء وهو ينظر إلى عَزّام الذي اندهش فعلًا لحرارة ترحيبه بي.

- أنا جبتهم من بيتي وملقتش حد أوديهم عنده إلا هنا يا صاحب المعالي.

قالها (عَزّام) فأشار (فرغلي) إلى الشاب والفتيات ليخرجوا وهو يقول مرتبكًا:

- خد البنات إنت وامشي وعدي عليا بعدين.

- يعني مفيش جارية بعينها دخلت مزاجك.

- يا (أبو حودة) اخلص وامشي بدل ما أخليهم يجيبوا الفلكة ويعلقوك فيها.

هز الشاب رأسه، وسحب الأربع فتيات وخرج من القاعة، قلت أنا مبهورًا:

- أنا مش مصدق إن شكلك متغير كده، مستحيل كنت أعرفك لو أستاذ (عَزّام) محكاليش عنك.

- أنا مش أستاذ يا ولد.. هما مماليك يا بك؟

تسارعت أنفاس (فرغلي) وهو يرد:

- لا.. هما مش فاهمين كلامنا لسه، علشان جم من نفس المكان اللي جيت منه، بص يا (عَزّام).. إنت تمشي وتعدي عليا بكرة علشان نتكلم، وإوعى حد يعرف بيهم.

هنا قال (راضي):

- محدش يعرف إيه دي مصر كلها شافتنا، الحاج (عَزّام) كان مركبنا عربية حنطور مكشوفة، وفيه كمين ناحية الدائري باين وقفنا و...

قاطعه (فرغلي) متسائلًا:

- إنت مين؟ أنا شُفتك قبل كده بس مش فاكر فين؟

تقدم (راضي) إلى الأمام ومدَّ يده وهو يقول بطريقة آلية:

- مهندس (راضي)، مونتير سابقًا ومسافر عبر الزمن حاليًا.

نظر (فرغلي) إلى يده الممدودة للحظة، ثم ابتسم بقوة، وهو يتجاهلها ويحتضنه قائلًا:

- افتكرتك.. أنا شُفتك مع (حسام)، منور بيت أخوك يا (راضي).

قال (راضي) مشيرًا إلى عمر:

- أعرفك بعمر أبو خطوة.

الغبي يكشف كروتًا لا نعلم مدى تأثيرها، كان تأثير هذا الاسم صاعقًا على (عَزّام) الذي نظر إلى (عمر) بريبة بينما (فرغلي) يقول:

- أقابلك بكرة يا معلم (عَزّام)، هستناك.

لم يحرك (عَزّام) عينيه من على (عمر)، وهو يغادر القاعة بينما (فرغلي) يسألني:

- (جعفر) أجبرك تيجي؟

- لا.. إنت بعتلي رسالة!

- نعم يا أخويا.. ودي بعتهالك إزاي؟

كدت أن أشرح له حكاية المخطوط الذي وقع في يدي، لكن (عمر) تكلَّم بهدوء وبعبارات لم أكن أنا نفسي أعرفها.

- إنت كتبت رسالة لحسام بتطلب منه يجيلك هنا في الزمن ده، وسيبتها في مقبرتك.

أصدر (فرغلي) صوتًا من فمه يشبه صوت القبلة، وهو يحرك يده اليمنى فوق رأسه ويقول:

- فال الله ولا فالك يا أخي.. بس أنا لسه ماكتبتهاش.

- هو إنت لسه مت؟

قالها (راضي) فظهر التفكير على ملامح (فرغلي)، بدأت هيبته تذهب قليلًا من نظري بعد أن تأكدت أنه يتميز بنفس خصاله القديمة، لا أعلم لماذا يرهبه الجميع هنا؟.. عدل (عمر) من وضع نظارته، وهو يكمل كلامه:

- فيه جماعة من ألمانيا لقوا الرسالة دي في مقبرتك، وبعديها الاتحاد السوفيتي عمل مشروع كبير بسبب رسالتك، علشان يدرسوا الآثار المصرية.

- خلاص إنتوا تريحوا دلوقت وتغيروا لبسكم علشان مانتفضحش، ونتكلم بعدين.

- إلا يا أسطى إنت كنت قاعد بتقلب في شوية مزز من شوية، إنت كنت بتشتري جواري؟

قالها (راضي) وهو يغمز بعينيه، تلفت (فرغلي) حوله كأن أحدهم يراقبنا، وهمس لنا:

- ما أنا مش نافع أتجوز.

ردَّ عليه (راضي) بصوت خافت:

- سلامتك.

- لا مش اللي في بالك، أصل ماينفعش أتجوز لأني ممكن أخلف، ولو خلفت هاغير في الزمن أكتر وأضيف أحداث وأشخاص هتأثر على أيامكم، وهنا اللي مش متجوز لازم يكون عنده جارية وإلا هيفهموني غلط ويفتكروني...

لم يكمل جملته وهو يهز رأسه لراضي الذي شهق وهزّ رأسه متفهمًا، لكنه قال بسرعة، وهو يضحك:

- بس إنت تلاقيك مغرق نفسك في الجواري.

- عليا النعمة ما لمست ست من ساعة ما جيت يا أخ (راضي)، دا أنا بعمل ده منظر علشان الكل يفتكرني فلاتي وبتاع ستات ومش عايز أستقر، لكن أنا مش هاخاطر وأبهدلكم

علشان مزاجي.. يا (راضي) دا أنا بقيت كبير في السن وبتعمل حاجات المراهقين.

قالها بتأثر وعيناه تكادان تتكون بهما الدموع، حتى إن (راضي) احتضنه وهو يربت بقوة على ظهره.. دخل القاعة شاب في العشرينيات من عمره يرتدي جلبابًا وعباءة ووقف على بابها كأنه ينتظر شيئًا ما:

- أعرفكم يا شباب بدراعي اليمين (سنقر)، واحد من أخلص رجالتي.. وهو هايشرف على إقامتكم، وتقدروا تطلبوا منه اللي إنتوا عايزينه.

ونظر إليه، وقال:

- دول يا (سنقر) تعتبرهم أنا بالظبط، إخواتي وأصحابي..

قاطعه (راضي) وهو يتشمم الهواء:

- إنتوا طابخين حاجة؟

- طواجن عكاوي.. ليه؟

- أصلي شامم ريحة مشاوي.

كان في القاعة رائحة شيء عطري يحترق، ظهرت بقعة لهب صغيرة في القاعة من جراء إلقاء فرغلي غليونه أرضًا عند استقبالنا لأنه أصبح (فرغلي) بك، ولكنه لم ينتبه إلى السجاد

الثمين، ولم ينتبه لهيبته وهو يجري صارخًا في (سنقر) أن يتصرف ويدعونا لنجري معه مغادرين القاعة.

***

1970

المستشفى العسكري

في الطابق الثالث كان (جابر) يتحرك ومعه صديقه المهندس (حلمي فضل الله)، هناك حركة غير طبيعية في المستشفى بالإضافة إلى أجواء حزن تختلط بالقلق تنتشر في المكان، وتظهر على المرضين والأطباء لدرجة أن أحدهم لم يسأل (جابر) و(حلمي) عن وجهتهم إلا مرة واحدة، وهما يتجهان إلى إحدى الغرف التي وقف أمامها جندي منكس الرأس ينظر أرضًا، ويسرح في اللا مكان، وقف الاثنان أمامه و(جابر) يقول:

- افتح الباب يا دفعة.

انتبه له الجندي وهو يقول بآلية:

- حضرتك مين؟

- (جابر عبد السيد) رئاسة جمهورية.

لم يعرف الجندي ما يفعله فرفع يدَه بالتحية العسكرية، وقامته تنتصب، وهو يقول:

- ماعنديش أوامر بدخول حد غير الدكاترة والممرضين.

- إنت بتضرب التحية لمدني؟؟ افتح الباب يا ابني إنت مش قد اللي بيحصل.

- يا افندي ميرضكش بهدلتي.

قال (حلمي) بعصبية:

- إنت سامع هو بيقولك إيه؟ مين..

توقف (حلمي) عن إكمال عبارته، ورجل يأتي جريًا من آخر الممر يرتدي الملابس العسكرية، وهو يقول:

- إيه اللي موقفكم هنا يا بهوات؟ الغرفة تحت حراسة البوليس الحربي.

وجه (جابر) جسده ناحية الرجل، ألقى عليه نظرة باردة، وهو يخرج من جيبه تحقيق الشخصية، و "كارنيه" صغيرًا نظر فيه الرجل وأعادهم إلى جابر قائلًا:

- سيادتك عارف اللي حصل النهارده وفاهم...

- يا سيادة النقيب الزيارة دي بشكل ودي فبلاش تخليني أجيبها من فوق.

تبادل الاثنان النظرات الباردة حتى قال الرجل:

- خمس دقايق بس يا افندم ولوحدك، ودا بشكل ودي لأني شُفت سيادتك قبل كده وعارف إنك مش بتاع مشاكل.

أمر الجندي بفتح الباب، ليدخل (جابر) إلى غرفة المستشفى وتغلق وراءه.. الغرفة عادية، بل أقل من العادية، لم تحتوِ على أجهزة طبية بل فراش حكومي قديم، وكومود، ودولاب ملابس، ومقعدين؛ على أحدهما جلس (عصام الدين خليل) في ملابس المرضى، لكن حاله قد تبدل كثيرًا، جسده أصبح هزيلًا، ولحيته نامية بشكل غير مهندم، مع الشعر الأبيض الذي نما على جانبي رأسه، أضافوا على عمره عشرين عامًا، ساعد في إثبات ذلك السن الدموع التي ظهر آثارها على خديه وعينيه الحمراوين من أثر البكاء.

ابتسم (جابر) بحزن وشفقة لرؤيته، في حين رفع (عصام) رأسه له، ونظر إليه بحزن، وهو يقول:

- كل حاجة راحت.

جلس (جابر) على المقعد بجواره، وقال:

- إنت عرفت؟!

- الله يرحمه، البلد هتقع خلاص.

تسللت ابتسامة خفية ساخرة على وجه (جابر)، وهو يقول:

- ماكنتش فاكر إنك هتعيط كده لما (جمال عبد الناصر) يموت.

- أنا ببكي على كل اللي إحنا عملناه.

- ولّا بتبكي على حالك؟ (عبد الناصر) رماك في السجن الحربي من 3 سنين من غير سبب، وقفل كل مشاريعك الحربية اللي كنت بتشرف عليها.

توقف عن البكاء ونظر إلى الأرض، وهو يمسح بيده دموعه، ويقول:

- الروس ضغطوا عليه، ماكانش بمزاجه.

هنا وضحت ابتسامة (جابر) الساخرة، وقال:

- ولسه بتحبه حتى لما جالك السكر والكبد في السجن؟!

فكر (عصام) قليلًا وهو يستنشق الهواء بقوة، وطلب من (جابر) سيجارة، فأعطاه هذا الأخير من علبته واحدة، وهو يقول:

- مش هتفرق.

أشعلها له، و(عصام) يسحب منها أنفاسًا، ويحاول ألا يسعل وهو يقول:

- أنا وإنت وغيري ماكناش بنحب (عبد الناصر) نفسه، كنا بنحب الأمل اللي فيه، الأمل أننا نبقى قوة عسكرية نخوف بيها الغرب، الأمل إننا نتقدم و..

سعل فجأة ثم عاد ليكمل:

- مش مهم إننا ماكناش عارفين نعمل طيارات ولّا صواريخ ولّا نصنع حاجة، المهم إننا كنا بنحاول، كنا بنحلم، حتى لو صحينا على كابوس فكفاية أننا أستمتعنا بالحلم.

- بس إنت ما استمتعتش وعشت سنين في الكابوس.

- يمكن الناس العادية كانت فرحانة، وده كفاية.

استرخى (جابر) بمقعده وأخرج سيجارة لنفسه، أشعلها ونفث دخانها وهو يقول:

- ومين قالك الناس فرحت، هما كمان زيك كانوا بيحلموا بالأمل وعايشين مستنيين حاجة تحصل، حلوة أو وحشة مش مهم، المهم إنهم يستحملوا علشان يشوفوا بكرة.

ألقى (عصام) رماد سيجارته على الأرض، وقال:

- مفيش بكرة خلاص.

- لا ماتقلقش يا سيد (عصام)، فيه بكرة وبعده وبعده، ولسه ياما هنشوف.

- اللي حوالين (عبد الناصر) هاياكلوا بعض والبلد هاتولع لحد ما حد فيهم يمسك.

- (السادات) كان النائب بتاعه وهو اللي هيمسك.

ابتسم (عصام) وهي من المرات القليلة في حياته التي رآه فيها (جابر) يبتسم، وقال:

- (السادات) طيب، هايشيلوه بعد شوية دا لو مقتلهوش.

ضحك (جابر) بقوة لدرجة أن (عصام) نظر إليه بذهول حقيقي، و(جابر) يتوقف عن الضحك ويقول:

- (السادات) هو اللي هايقش ويخلص عليهم كلهم، هو الحصان الكسبان، وأنا راهنت عليه، أنا معاه وهاخليه يرجعك الملعب السياسي تاني و...

قاطعه (عصام) غاضبًا:

- لا.. أنا مش عايز أرجع، لو قدرت تخرجني من السجن الحربي يبقى عملت فيا جميل، ولو رضيوا يدوني معاشي علشان أصرف على عيالي يبقوا متشكرين.

- طب ومشروع إيزيس؟

تبدلت ملامح (عصام) الحزينة الضعيفة واستعادت جزءًا قليلًا من شدتها، وهو يلقي بعقب السيجارة أرضًا، ويدهسه بخفيه قائلًا:

- أنا مليش دعوة بالمشروع خلاص.

- إنت عارف يا سيد (عصام) إن كل حاجة كانت حوالين المشروع ده، إنت ما اتسجنتش علشان مشاريع الطيران ولا الأسلحة الصاروخية، أنا وإنت عارفين إن مدير مشروع (إيزيس) في مصر هو اللي ضغط على (عبد الناصر) علشان يبعدك، لازم المشروع يتقفل.

- إنت كنت بتستفاد من المشروع زيهم ماتعملش فيها طيب.

- بستفاد إزاي؟

- ده اللي ماقدرتش أعرفه.

قالها (عصام) وعاد وجهه إلى حالة الضعف والوهن ثانية، وهو يركن رأسه على يده اليمنى ويقول بأسى:

- من ساعة ما اتحبست ومحدش بيسأل عليا.. ولما تعبت ونقلوني هنا من سنة مفيش حد بيزورني.

نظر إلى جابر وأكمل حزينًا:

- كنت عايزكم تزوروني وتسألوا عليا، بس إنتوا بعدتوا.

- ما هو الأمل اللي حضرتك بتحبه في (عبد الناصر) كان مخوفنا نسأل عليك، حتى علشان مانصحاش من الحلم على كابوس.

- لو عرفت تخرَّجني من هنا يا (جابر) خرجني، وابقى أسأل عليا من وقت للتاني.

تجلت الشفقة على وجه (جابر)، وهو يقول مبتسمًا:

- هاتخرج، وهتاخد معاش، وأتمنى أشوفك واقف على رجلك قريب.

أنهى كلماته وهو يقف ملقيًا بسيجارته أرضًا، اتجه ناحية باب الخروج، ولكنه توقف وابتسم وهو يستمع إلى صوت (عصام) يخبره قائلًا:

- إنت ملكش في لعبنا، ومش جاي تساومني، بس كان نفسك تعرف معلومات وماقدرتش تطلبها مني، يمكن صعبت عليك، أو ماحبتش تستغلني.

التفت له (جابر) محافظًا على ابتسامته، وهو يكمل:

- إنت يا (جابر) يهمك في المشروع ده بيت (سيد أبو خطوة) اللي عايزين يخشوه وإنت رافض، ويهمك المقبرة اللي في (باسوس) اللي دخلتها إنت و (أليكسندر قنسطنطين) وماعرفتوش تخرجوا منها بحاجة.

- مكتبك دخل المقبرة بعدينا وأخد كل اللي فيها.

عادت الحيوية إلى وجه (عصام) ونبراته، وهو يقول:

- إنت مش مهرب آثار ومتأكد من كده، لكن يهمك الحاجات اللي خرجناها، وطبعًا محدش يعرف مكانها غيري، لأني شايلها في مخزن من المخازن الآمنة تبع المكتب.

- أنا مش عايز غير الحاجة اللي جوه القبر؟

- تعرف يا (جابر)، كان عندي فضول أعرف إنت مين؟ وأعرف الحاجات اللي جوه المقبرة الإسلامية دي هاتفيدك بإيه، دورت فيها قبل ما أوديها المخزن ومافهمتش حاجة، بس كنت عارف إنك هتدور وراها، وهتحاول تتواصل معايا، وأديك جيت.

زادت ابتسامة (جابر) وظهرت أسنانه، و(عصام) يقول:

- احفظ العنوان ده كويس.. وخلي بالك على نفسك.

***

1836

أين هيبة هذا الماضي؟! منذ استيقاظي اليوم في منزل (أبو خطوة)، في عصر (محمد علي باشا)، وخروجي مع (عَزّام) إلى منزل (فرغلي)، لم أجد الهالة التي تحيط بالماضي، فمصر وناسها كما هم بنفس طريقتهم، بنفس كلماتهم هذا إذا افترضت أنني سافرت إلى الماضي بحق.

تجمعنا مع (فرغلي) على العشاء، معظمنا صامت إلا من سؤالي إياه عن تاريخ السنة وأجابني هو بالتاريخ الهجري، ثم عدله إلى الميلادي لأستطيع فهمه، ولم يتكلم أحدنا حتى انتهينا من الطعام. أوصلنا (سنقر) إلى الحرملك في الطابق الثاني، لنرتاح في غرف النوم قليلًا، طبعًا لم يستطع (راضي) إلا أن يعلق -كعادته- على وجود نساء في الحرملك، باعتبار كلمة (حريم) فأخبره (فرغلي) بحكمة كوميدية أن السلاملك يعني "السلام لك"، وهي أماكن استقبال الضيوف والغرباء، والحرملك يعني "حرام لك"، ويعني أنها غرف العائلة، والتي لا يقربها الضيوف، وبما أننا لسنا ضيوفًا فسنقيم به، كما أن القصر ليس به سوى بعض الخدم والجواري الذي يحتفظ بهم (فرغلي) لفترة، لا يمسهن فيهن ثم يبيعهن ويشتري أخريات، كي يعمق الصورة الذهنية عنه بأنه زير نساء وطوال فترة إقامة الجواري فإنهن يعشن في قاعات خاصة بهن، لا يقربها أحد حتى يغادروا، اللهم إن أراد (فرغلي) التحدث مع إحداهن -كذلك أخبرني هو- لتمضية الوقت لا أكثر في مواضيع تافهة.

دخل (عمر) إلى غرفة النوم، وأنا و (راضي) اتخذنا غرفة واحدة، وجدت ملابس نوم تنتظرنا على الفراش تناسب هذا العصر، لكنها لم تناسبني لأنني لم أعتد على الجلباب في حياتي،

لراضي فراش، ولي آخر، لكني لم أنم مثل (راضي) الذي تعالى شخيره بعد ثوانٍ من استلقاه، أما أنا فجلست على الفراش أنظر إلى القنديل الزجاجي المعلق في السقف، وداخله يشتعل لهب يتغذى على الزيت، لم أنم لأني أفكر بعمق أو أحلل، لكن الحقيقة أنني لاحظت أن كل من حولي يفهمون ما يحدث بشكل أو آخر؛ لكني لا أستطيع ربط أي حدث بالآخر.

(راضي) نائمٌ لأنه يفهم، وأنا مستيقظ بجانبه جاهلًا بكل ما يحدث، عقله -راضي- يمتلئ بمعادلات ونظريات تجعله يتقبل ما نحن فيه، و(عمر) يعلم أكثر مما يكشف ويتحرك بناء على تعليمات، أو مهمة كلف بها على حسب ما لاحظته، أما (فرغلي) فمن تخميني لعمره، ومن الرسالة التي تركها بمقبرته فأعتقد أنه عاش سنين طويلة هنا وعلم الكثير من الأمور.

لكن هناك الكثير من الأسئلة التي لا حل منطقي لها.. (راضي) ما زال يحلم بصوت عالٍ كعادته، وها هو ينطق اسم (دعاء) ويتحدث معها عن شيء غريب، حتى أخذ يردد كلمتين بلا معنى (تعويض مكاني)، ظلّ يردد الكلمات كجهاز التسجيل بلا انقطاع، حتى سمعت نقرات على باب الغرفة وصوت (فرغلي) من الخارج يطلب إذنًا بالدخول، دعوته فدخل ونظر إلى راضي وقال:

- (تعويض مكاني) إيه اللي بيقولها؟

- لا سيبك، هي هربانة منه شوية.

- كنت عايز أتساير معاك شوية وكويس إنك لسه مانمتش.

- تتساير.. وماله، ما إحنا كده كده لازم نتكلم.

- تحب نقعد في الجنينة نشرب قهوة؟

- قهوة دلوقت؟

- القهوة هنا في أي وقت، حصلني على تحت.

قالها فجريت وراءه، لأني لو تحركت في هذا المنزل وحدي سأتوه على الأغلب بين ممرات غرفه المعقدة.. نزلنا درجات سلم خشبي، بعد بضعة ممرات ووجدت أننا في حديقة صغيرة جدًّا، بها بضعة مقاعد موضوعة حول منضدة صغيرة مزخرفة، كل شيء في هذا العصر مزخرف بعناية، حتى إنني أسرح في تلك الزخارف بشكل لا إرادي.

جلسنا على مقعدين متجاورين، و(فرغلي) يصرخ مناديًا (سنقر) الذي أتى من اللا مكان مهرولًا، أخبرت (فرغلي) عن مقدار السكر الذي أريده في القهوة.

- قولهم يعملولنا اتنين قهوة معنبرين مانو وهاتلي الشُبُك بتاعي وواحد كمان للسيد (حسام).

- إيه الشُبُك ده؟

فهمت عندما أجابني أنه الغليون الذي كان يدخنه عند مقابلتي.

- لا أنا تمام، مش ناوي أموت بالسرطان عندكم.

- ياد دا أنا عندي دخان صابح جاي من اللاذقية على هنا دوغري.

- إيه المصطلحات الأوفر دي.. كفاية عليا القهوة المانو، إلا هما يعرفوا معنى مانو؟

صرف هو (سنقر) وضحك وهو يقول:

- أنا جيت لقيتهم بيقولوا على القهوة الزيادة مانو.

- إنتوا تعرفوا السكر؟

- لا دا إنت هاتندهش كتير على كده بقى، كل الناس عارفين السكر يجيي من 500 سنة، كنت زيك كده لما جيت من 18 سنة، كانت البلد حاجة تانية، والوالي لسه ماسك، والمماليك محاوطينه من جهة، والباب العالي من جهة تانية، وأنا كنت خايف.

ظهر التأثر عليه وهو يسرح بعينيه في المنضدة، ويقول:

- خرجت من بيت (عَزّام أبو خطوة) واستكشفت كل

حاجة بنفسي، دُقت طعم كل حاجة، سنة ونص شحات في الشوارع، بشحت الأكل مش الفلوس، وسنتين صبي في مغلق خشب في إمبابة، وجت سنة 1811 وافتكرت إن فيه حاجة هاتحصل في السنة دي، فاكر أبلة (عفاف) العقربة اللي كانت مدرسة دراسات اجتماعية وإحنا صغيرين؟!

ابتسمت وأنا أهز رأسي، وأتذكر تلك المرأة الشمطاء التي كانت تردِّد ما في كتاب الدراسات الاجتماعية في طفولتنا كالرجل الآلي، بلا أي فهم أو معنى، أكمل هو:

- الست دي أنا بكرهها أوي، بس هي حفظتنا معلومات عن العصر ده، ربنا يديها الصحة لو كانت عايشة وتدخل جهنم لو ماتت.

قلت أنا:

- مذبحة القلعة!

- الله ينور على مخك، طبعًا معظم اللي درسناه كان غلط، بس الشوية الصح اللي أنا فاكرهم قدروا يخلوني أشق طريقي من غير ما أغير حاجة في التاريخ.. أتصاحبت على العمال اللي بيشتغلوا في قلعة الجبل.

- فين دي؟

- دي اللي أخدناها في التاريخ باسم قلعة (محمد علي)، هناك أبهرت ريس العمال، وعليت لحد ما وصلت لمسئولين الأبواب بتاعة القلعة وافتكرت اسم باب العزب اللي بيطل على ميدان الرميلة، واتعرفت على صاحبه المسؤول عنه (إبراهيم أغا)، ومنه قدرت أوصل لفوق لحد الوالي بنفسه، وعرضت عليه فكرة مجنونة، كنت عارف إنها بتدور في راسه، وغيري عرضها عليه قبل كده، نقضي على كل المماليك إما بالسم في وجبة أكل، وإما في احتفال مهيب، أو يتقفل عليهم باب العزب وهما خارجين، والأرناؤوط يخلصوا عليهم بالسيوف.

- هي دي تفاصيل المذبحة؟

- لا مش بالظبط، أنا قصدت أعرض عليه أكتر من فكرة يختار منها، بصراحة الراجل كان عسلية، وسمعني لحد الآخر وسألني عن كل أفكاري وتصوراتي، وأنا فضلت أعدد ليه الفوايد من اللي هايحصل لحد ما خلصت.

- فخلاك مستشاره.

- لأ، حبسني في مقشرة القلعة، وأكلت ضرب بعيد عنك ولا فيلم (الكرنك) بتاع (سعاد حسني).

توسعت حدقتا عيني، فقال بسرعة:

- لا لا لا أنا زي الفل، الموضوع ماوصلش لحد (فرج) والاغتصاب، بس الوالي كان عايز يتأكد إني مش مدسوس من حد من المماليك، ولما أتأكد إني واحد عادي.

- خرجك من القشارة دي؟

- لا سابني محبوس عادي، إنت قلبك طيب كده ليه يا جدع، هو خرجني بعد ما عمل المذبحة، وشغلني في ديوان مصروفات العلف في القلعة، متستقلش بالشغلانة، الوالي كان يدردش معايا شوية كل كام شهر ويسألني عن أحوالي، وكنت بأبهره كل مرة أكتر من التانية، والدردشة زاد وقتها وسنة ورا سنة حذرته من كام حدث افتكرته لحد ما دخلت لعبة المماليك واتعلمتها منهم.

- من مين يا بني؟ هما مش ماتوا؟

- لا، المماليك العسكرين القدام وجيوشهم هما اللي ماتوا، لكن بقية المماليك اللي كانوا في أشغال مدنية اتسابوا في حالهم، دا حتى الوالي عنده لحد دلوقت 600 مملوك تبعه، وأنا عندي 75 مملوك بس مش محاربين دول بيشتغلوا في أعمال عادية وبيديروا شغلي.

جاء (سنقر) يحمل الشُبُك لفرغلي ووراءه خادم يحمل صينية عليها قدحان من الخزف الأبيض بهما قهوة سوداء، بجانبهما

كيس من الحرير، وحجران صغيران، علمت فيما بعض أنهما من الصَوّان، وضع الخادم الصينية وابتعد، و(سنقر) يقدم الشُبُك باحترام زائد

إلى فرغلي، الذي تناوله وهو يفتح الكيس الحريري الممتلئ بالتبغ، ويحشوه في قطعة بالشُبُك، وهو يقول مبتسمًا:

- (سنقر) دا بقى زي ابني يا (حسام)، هو أصلًا من مواليد النحاسين وأبوه كان صنايعي نحاس مفيش أخوه، بس هو ماحبش شغلة أبوه وكان بيبيّض النحاس الخسران بس.

- هو من مماليكك؟

ظهر الضيق على (سنقر)، ولكنه أخفاه قدر ما استطاع، و(فرغلي) يطقطق بفمه قائلًا:

- بقولك مولود في النحّاسين، من ولاد البلد يعني، أنا ربيته من وهو عيل صغير، من ساعة ما أبوه مات، وماسكلي كل شغلي، دا حتى جوازه كان قريب، يا ريتك حضرت ليلته.

أخرج (فرغلي) من جيب جانبي على الكيس الحرير مادة سوداء كالرمال نثرها على التبغ المحشور في الشُبُك، واستخدم حجرين الصَوّان ليشعل النار فيه، يبدو أنها مادة مساعدة على الاشتعال، لأن النار تعالت في ثانية واحدة، كنت مشغولًا

بمراقبة (فرغلي) وهو يعد لنفسه تلك الأداة المعقدة التي تقربه من سرطان الصدر، عندما قال (سنقر):

- (فرغلي) بك أفضاله عليا ماتتعدش، حتى أداني 120 فدان وبنالي بيت خصوصي قبل ما أتجوز، هافضل خدامه لحد ما أموت.

استنشق (فرغلي) بضعة أنفاس، تصاعدت رائحة عطرية نفاذة في المكان، وهو يقول بفخر:

- أصل أنا كنت أشتريت حتة أرض كده من فترة فقُلت أديهاله، مكانها مش بعيد على فكرة دي جنبنا هنا في قرية صغيرة اسمها (أبو النور).

كنت أنا أهم بحمل قدح القهوة، قبل أن تصل يدي إليه توقفت متصلبًا فنظر (فرغلي) إليَّ بطرف عينيه مبتسمًا ليرى تأثير عبارته على وجهي وأكمل:

- شكلك تعرفها يا (حسام)، (أبو النور) مكان جميل وأهلها طيبين، إن شاء الله (سنقر) يكمل فيها حياته، تعرف إن أهلها لما عرفوا إن (سنقر) كان بيبيض النحاس ويدهنه بقوا يسموه إيه.. (سنقر الدهان).

هل هو الجد الأكبر لعائلة (الدهان)؟!! ما الذي يفعله (فرغلي)؟؟ في نفس اللحظة ظهر على (سنقر) أنه يريد أن

يقول شيئًا لفرغلي، فانتبه له هذا الأخير، فمال (سنقر) على أذنه يهمس له حتى ضحك (فرغلي)، وهو يقول:

- هاتهولنا يقعد معانا بسرعة واعملّه قهوة زينا.

ابتعد (سنقر) و (فرغلي) يقول:

- (راضي) صحي من النوم بيدور علينا، وتايهة من شوية في الحرملك.

- إيه حكاية (سنقر الدهان)، أنا اللي فاهمُه صح؟

- مش عارف، أنا مهمتي إني أقتل جد عيلة (السلاموني) اللي قتلوا (صفاء) بالغلط، بحكم حياتي هنا ومعارفي في سوق النحاسين اتصاحبت على ناس منهم، وربيت (سنقر) اللي كانوا بيقولوله (الدهان)، كأن الزمن دلني عليه، وحطني في طريقه علشان أوصله لأبو النور، ويمكن من غيري كان هيوصل ويكون عيلته، تقريبًا الزمن مابيسمحش أني أغيره، لكن بيشركني في أحداثه أو بيخلي الأحداث اللي بعملها مش مهمة.

تناولت قدح القهوة ورائحتها تهب عليَّ مع رائحة عطرية خانقة، تذوقتها فامتلأ فمي بطعم يشبه القهوة لكنه مخلوط بشيء ما مقرف.

- إيه مش عجباك يا (حسام)؟

- إنت حاطط فيها إيه؟

- عنبر، حاجة عمر أهلك ما شافوها.

أعدت القدح إلى مكانه، و(فرغلي) يدخن ويقول:

- تعرف إنك في زمان تاني ممكن تكون بتشرب سجاير.

هل يقصد...

- عالم موازي مثلًا؟؟؟

- يعني إيه؟

هل علينا (راضي) وأحد الخدم يصطحبه، ويشير ناحيتنا فيقبل ويجلس بجانبي، قائلًا:

- مساء الفل على عم الناس.

قالها (راضي) ورفع يده محييا فرغلي، الذي أعطاه الشُبُك، وهو يقول:

- مساء الخيرات على الشبراوية الجدعان، خد عفر ونضف صدرك.

استنشق (راضي) نفسًا، سعل بعده، ثم بدأ يستمتع بالتدخين، وأنا أقول:

- بتقول إني في مكان تاني.. ممكن أكون بشرب سجاير، تقصد إيه؟

- بعد ما اتصاحبت على (عَزّام) حكيتله حكايتي، فهو فهمني كل حاجة يعرفها عن خبيئة بيت (أبو خطوة) واللي أكدت كلامي ليه.

- إنت إيه اللي حصلك؟ أنا لسه شايفك من يومين أصلًا لما كنت بزور (حسام) في بيته.

قالها (راضي) فضحك (فرغلي) حتى سعل، وقال بعد تمالكه نفسه:

- أهو أنا فاكر آخر أيام ليا لما كنت عندكم كويس، لأنها ذكرياتي اللي بدأت أصدق إنها خيالات، عدى على الحكاية دي سنين من عمري، بصوا فيه أحلام كانت بتجيلي غريبة، كنت بشوف فيها نفسي واقف مع (جعفر) وبكلمه وبهزر، وساعات كنت بشوف نفسي في فرح وإنت يا (حسام) معايا، و(جعفر) هو العريس، الأحلام دي اتكررت بأشكال مختلفة، بس مش كأنها أحلام، كأنها أحداث عشتها فعلًا، طبعًا إنت صاحبي يا (حسام) علشان كده ما استغربتش من وجودك، بس (جعفر) هو اللي شغل بالي.

جاء خادم بالقهوة لراضي الذي استمتع بها هي الأخرى،

ثم أعطاه خادم آخر شُبُك وملأه، ثم أشعله له كي يعيد الشُبُك الأصلي لفرغلي الذي انتظر انصراف الخدم كي يكمل حديث قائلًا:

- في يوم لقيت الباب بيخبط، بفتح طلع (جعفر)، عاملني زي صاحبه اللي ماشفهوش من زمن، وطلب يقعد معايا، وحكالي حكاية طويلة عن إننا كنا أصحاب في مكان تاني، وإنه طالب مساعدتي، بيني وبينكم أنا افتكرته عفريت في الأول.

- ليه؟

- لأنه حب يوريني إن الموضوع بجد، فاختفى وظهر تاني، وافقت أروح معاه بيت (أبو خطوة) وأشوف بعيني، وحتى كلمتك وأنا راكب معاه الميكروباص بس إنت نفضتلي.

- إنت لسه بتقول الكلمة دي؟

- أُمال لو تعرف أننا بنقول هنا كلمة حلقلي، المهم دخلت البيت وقالي (جعفر) إنه مايقدرش يخرج بعيد عن البيت كتير، ومحتاجني أكون مكانه أغير في أبعد نقطة في الزمن يقدر هو يرجعلها يوصلني ليها، وأنا اللي أغير في الأحداث، ولما أخلص هو هايرجعني لزمني الأصلي ومش هايكون عدى أكتر من كام ساعة حتى لو قعدت هنا سنين.

- ماتقولش إنك وافقت كده بسهولة.

قالها (راضي)، فرد (فرغلي):

- يا عم أنا عجزت هنا، أكيد وافقت أمال بنتكلم إزاي دلوقت؟ وطبعًا ماوافقتش جدعنة ولّا حب مغامرة، ممكن تقول هبل، أو فضول، زي ما واحد يجي يقولك أنا أقدر أخليك تختفي فتقوله وريني، المشكلة إن (جعفر) وراني فعلًا، وسابني بعدها هنا.

- مش يمكن لما تنفذ مهمتك يرجعلك؟

- لو نفذت كلامه مش محتاج يرجعلي لأن الزمن هيكون أتغير خلاص، والتغيير البسيط اللي هايحصل هنا هيأثر في المستقبل ويغيره كله، بس تخيلوا بقى إني كل ما أحاول أوصل للسلاموني الكبير تحصلي حاجات غريبة، حوادث كنت هموت فيها كلها لولا ستر ربنا، كأن فيه حاجة بتمنعني إني أغير حاجة بجد.

قال (راضي) بجدية:

- زي النهر لو رميت فيه حجر مش هايغير مساره، الحجر هايعمل دوامة صغيرة ويختفي، (فرغلي) كان بيعافر مع نهر الزمن.

- حلوة نهر الزمن دي يا شقيق.

قالها (فرغلي) وهو يغمز له مهنئًا، فقلت:

- بس إنت مافهمتناش كل حاجة.

- يعني أنا قاعد سنين أفهم ومطلوب مني ألخصلك القصة كلها في قعدة؟

- والله الراجل عداه العيب.

طبعًا (راضي) الذي هو نسخه منه لن يتوقف عن المزاح معه حتى ولو قامت القيامة.

- (جعفر) جابكم هنا إزاي؟

- (جابر) هو اللي دخلنا البيت نقابل (جعفر).

- (جابر) دا شخصية (جعفر) بس في الماضي.

- إيه هو حكالك؟

- طب و(عمر) إيه حكايته؟

تبادلنا النظرات أنا و(راضي) و(فرغلي) يقول:

- باين إنكم مش واثقين فيه.

- أنا حاسس إنه فاهم كل حاجة ومش هايقولنا.

قلتها فقال (فرغلي):

- إحنا ممكن نعرف اللي مش عايز يقوله؟

- نضربه؟

قالها (راضي) فهز (فرغلي) رأسه نافيًا وهو يرتشف من القهوة ويقول:

- (عَزّام) معاه روحانية جنّ شديدة ويقدر يستجوب قرينه.

-أنا ممكن أصدق أي حاجة دلوقت؟

قالها (راضي) فقلت أنا متذكرًا:

- كان فيه شنط أدهالنا (جابر) و...

قاطعني هو:

- (عَزّام) عدى عليا وعرفني، الشنط هتفضل جوه البيت لحد ما نروحلها بكرة بمشيئة الله، قولي يا (حسام) هو فيه طريقة نرجع بيها لزمنا تاني؟

- بص ما أعرفش، بس معنديش نية أموت هنا.

- خلاص بكرة الصبح أول ما تصحوا نتحرك على البيت وهانلاقي (عَزّام) مستنينا.

هلَّ علينا (سنقر) يجري ومعه خمسة من الخدم، وهو ينادي قائلًا:

- سيد (عمر) بتحصله حاجات غريبة في أوضته، وبنحاول نفتح الباب مش راضي يفتح.

- (عمر) اللي مش راضي يفتح ولّا الباب بايظ؟

- الباب مقفول من جوه وده مش ممكن.

نهضنا من أماكنا وسرنا، (فرغلي) يتقدمنا وهو يأمر أحد الخدم بأن يأتي بالغدارة، منذ عامين ظهرت أغنية (أنا اسمي سعيد الهوى) وذكر فيها مطواته باسم (الغدارة)، لم أتخيل (فرغلي) يمسك أكثر من مطواة تحت أي ظرف، لكن الخادم أتى بالغدارة، وكيس البارود وكيس الطلقات، حالة أخرى من الإبهار يضعني بها (فرغلي)، وهو يضع البارود في ماسورة المسدس، ثم طلقة كروية صغيرة ويدسها إلى داخل الماسورة القصيرة، ثم يضع بارودًا جديدًا عند منطقة الشاكوش في المسدس، والتي هي قطعة صَوّان تساعد على اشتعال البارود من الخارج إلى داخل ماسورة المسدس لتنطلق الطلقة، (فرغلي) صنع كل هذا في ثوانٍ معدودة، وهو يتقدمنا مهرولًا، كأنه استخدم هذا السلاح القديم مئات المرات.

صعد السلم الخشبي ونحن وراءه، سار بالحرملك حتى غرفة (عمر)، فهمت الآن سبب لوعة (سنقر) منذ قليل، هناك أصوات خوار حيوانات تأتي من داخل الغرفة، وبرغم أننا ليلًا إلا أنني أرى ضوءًا أحمرَ يأتي من تحت باب الغرفة، أصوات طرقات سريعة وجنونية تأتي من الداخل مع صوت جهوري

يتكلم بلغة غريبة، ضرب (فرغلي) الباب بقدمه أكثر مرة فلم يفتح، فنادى بأعلى صوت:

- سيد (عمر) أنا مضطر أكسر الباب، أبعد عنه لو إنت قريب.

وجه الغدارة (المسدس) ناحية مزلاج الباب وضغط الزناد فاشتعل البارود لهبًا عند شاكوشها، في أقل من ثانية دخل اللهب إلى الماسورة، وانطلقت الرصاصة محدثة ضجة مخيفة، تطاير جزء من خشب الغرفة، وانفتح الباب من نفسه لنشاهد ما لم نفهمه في البداية، ثم عند الفهم صرخ خادمان فزعًا، وكرر (سنقر) الشهادة وآيات قرآنية بغير هدى.

داخل الغرفة جلس (عمر) على ركبتيه عاريًا كيوم ولدته أمه، وأمامه كائن طويل أبيض الجلد، نحيل الجسد، طويل الأيدي، ليس له فم، ولا أذنان، ولا أنف، عيناه فقط هما البارزتان في وجهه الممتلئ بالتجاعيد، يَخرُج ذيل طويل من مؤخرة ظهره، ينتصب متحركًا يمينًا ويسارًا، والكائن ينظر إلينا بعين غاضبة كأننا قاطعناه عن شيءٍ هام.

هذه هي أول نظرة، التفاصيل الأخرى فهمتها في الثانيتين الباقيين، بعض قطع الأثاث مرتفعة في الهواء، وفي خمسة مواضع

بالغرفة يقف خمسة كائنات متوسطو الطول بأقدام تشبه حوافر الجمل، وشعر يغطي أجسادهم ما عدا الوجه الذي تظهر أفواههم بطريقة مرعبة فهي مشقوقة من الأذن إلى الأذن، لكل منهم خصلة شعر طويلة من الرأس.. لم أكن قد استوعبت صدمة ما أرى؛ لذلك لم أجفل واحتفظت بعين الفضولي متأملًا في كل هذا.. لكن الكائن لم يمهلنا وقت، وهو يشير ناحيتنا فتجري قطع الأثاث العائمة في الهواء ناحيتنا، وتخرج من الغرفة لتصدم بنا عشوائيًا، ويسقط معظمنا، وبعض الخدم يهربون، عاد الكائن ينظر إلى (عمر) الذي رفع يده اليمنى، والتي يرتدي فيها خاتمًا وهو يقول:

- لكم مني الطاعة على عهد (أبو معشر الفلكي) ولي عليكم الخدمة والطلسمة والسمع والإجابة حين الطلب.

اختفت الكائنات ونهضنا نحن متثاقلين، وقف (عمر) وقال بثقة موزعًا نظراته علينا:

- دلوقت أنا جاهز علشان أساعدكم.. وأحميكم.

***

1970

وصلت سيارة (جابر) إلى منطقة مصر الجديدة، توقفت عند منطقة هادئة خالية تقريبًا من المارة؛ برغم أنه في منتصف النهار، توقفت السيارة أمام عمارة حديثة نسبيًا، لم يمر على إنشائها أكثر من عشر سنوات، خرج (جابر) و(حلمي) من السيارة وهم يحملون ثلاث حقائب كبيرة ودخلا العمارة.

ظهر بواب من مكان ما سألهما بشراسة عن وجهتهما، فسأله (جابر) إن كان يستطيع القراءة والكتابة، نظر له البواب بغرور وأجابه أنه يستطيع، أخرج (جابر) بطاقة هوية من جيبه وهمس في أذُن البواب الذي تبدل حاله بالطبع، و(حلمي) يسأله عن الشقق التي يمتلكها (عصام الدين خليل)، أخبرهما البواب بسرعة أنه يمتلك كل الشقق من الطابق الأول إلى الرابع، تركاه وصعدا إلى الطابق الثاني كما أخبر (عصام) (جابر) في المستشفى.

وقف الاثنان أمام الباب و(حلمي) يقول:

- ماتقولش إنك هاتطفش الباب.

- لا ماتقلقش، كان معايا هدية قديمة من المخابرات العامة لما كنت في مشروع إيزيس علشان أعرف أفتح الأبواب.

تبع عبارته بأن أخرج من جيبه قطعة معدنية في حجم علبة السجائر يخرج منها نصل على جانبيه أسنان معدنية صغيرة متحركة تعمل عمل أسنان المفتاح الأصلي، أدخل النصل في رتاج الباب وأخذ يحرك القطعة بسرعة للداخل والخارج حتى سمع صوت تكة منخفضة، أدار القطعة المعدنية فاستجاب له الرتاج، وانفتح الباب.

حملا الحقائب ودخلا وهما يبحثان عن زر الإضاءة حتى وجداه، وأضيئت الشقة التي كانت خالية من الأثاث لكنها تمتلئ بالصناديق مختلفة الأحجام والأشكال، على الأرض بجوار الباب تناثرت عشرات الفواتير من شركة الكهرباء، والتي فحصها (حلمي) سريعًا ثم قال:

- تقريبًا الشقة مابتستهلكش كهربا، تفتكر علشان كده مقطعوش عنها الطاقة؟

- سيبك من الكلام ده ووصّل الأجهزة في أقرب فيشة بسرعة.

سار (جابر) وسط الصناديق التي حملت أرقامًا ورموزًا حتى توقف عند مجموعة صناديق تحمل رمزًا يعلمه من (عصام)، أخذ يفتح كل ما تقع يداه في هذه المجموعة وأخرج بعض

القطع وضعها على الأرض، و(حلمي) يسأله وهو يوصل أحد الأجهزة بقابس كهرباء ويضبطه:

- إنت بتدور على إيه بالظبط يا (جابر)؟

- كل حاجة في المقبرة عايز أفحصها.

تأمل (جابر) القطع على الأرض وقال:

- فاكر لما دخلنا مقبرة (دهشور) اللي فتحهالنا (سيد أبو خطوة)؟

- آه، مش دي اللي (حسام) طلب إنك تدخلها وتاخد الحجر اللي فيها هو وشوية صفايح معدنية؟

- إنت لسه فاكر (حسام) لما زارني في البيت؟

اقترب منه (حلمي) حاملًا جهاز ضخم، يتدلى سلك طويل منه موصول بقابس الكهرباء ووضعه بجانب القطع، ثم أخرج منه جزءًا يشبه سماعة الهاتف الأرضي وقال:

- عايز تفحص أنهي قطعة فيهم؟

- شوف أي قطعة فيهم عندها استجابة مع الكهرباء عقبال ما أدور على حاجة معينة.

أخذ (حلمي) يوصل بعض الأقطاب بكل قطعة، ويقرأ على شاشة صغيرة بيانات ذبذبات كهربية؛ بينما (جابر) يفتح

الصناديق بشكل عشوائي، حتى وصل إلى صندوق به كرة معدنية سوداء أخرجها وهو يهتف:

- لقيت اللي أنا عايزه، خلص اللي معاك وافحص الكورة دي بسرعة.

- هو (حسام) طلب منك تدخل مقبرة (دهشور) علشان تاخد الحاجات دي منها، وفي نفس الوقت طلب منك تساعد (أليكسندر) وتدخلوا المقبرة الإسلامية في (باسوس) ليه؟

توقف (جابر) عند صندوق كبير، فتحه فامتلأت الشقة برائحة كريهة لأن جثة متحللة لفت بالحبال فيها.

- إحنا محتاجين حد ينقل الجثة دي وبقية الصناديق، أنا عايز طبيب تشريح يحاول يخرجلي أي معلومات منها

قالها (جابر) وهو ينظر إلى (حلمي) الذي قال:

- ماردتش على سؤالي؟

- كنت بتقول إيه؟

لم يرد عليه (حلمي) وهو يراجع بيانات على تلك الشاشة الصغيرة باهتمام، اقترب منه (جابر) وجلس على الأرض إلى جواره، وهو ينظر إلى الكرة السوداء وبضع صفائح معدنية انثنت بمواضع عديدة.. فجأة ردد سارخًا:

- إزاي الكورة دي هنا وهي موجودة مع (أليكسندر) في بيت حلوان دلوقت؟

- (جابر).. كل الحاجات اللي قدامي دي مالهاش دعوة بموصلات الكهربا، إنت مش ملاحظ إن الكورة نفسها مصبوبة من سبيكة رصاص.. أنا شُفت الكورة اللي إنت بتحكي عنها في مقبرة (دهشور)، دي مالهاش علاقة بيها.

قال (جابر) شاردًا:

- إذا كنت أنا المفروض أخرج الحاجات دي من مقبرة (دهشور)، وابعتها في المستقبل في 2007 مع فريق تصوير لعصر (محمد علي باشا) علشان يبنوا بيها غرفة تخليهم يخترقوا بيت (أبو خطوة)، يبقى إزاي الحاجات دي مش حقيقية؟

- (جابر)، إنت في المستقبل هتبعت مع الفريق الحاجات دي، وده معناه إنك ضحكت عليهم وماساعدتهمش.

نظر (جابر) إلى الصندوق الذي يحتوي على الجثة طويلًا، وقال:

- تفتكر قدري أكون خاين يا (حلمي)؟

***

فعلًا لم تنقص المسألة إلا دخول الجان والعفاريت فيها، لم نذق النوم تلك الليلة مما شاهدناه جميعًا، عالم الجان يعتمد على التلميح لا التصريح، كل الناس تخبرك أنها لمحت شيئًا يتحرك في مجال إبصارها، أو سمعت صوتًا غير واضح لكن أن يظهر لك الجن بوضوح.. صدقوني مأساة لم أتخيل أن تصدمني لهذا الحد.

بعد أن تمالك الجميع أعصابهم، وارتداء (عمر) لملابسه، قررنا سؤاله عما حدث وهذا حقنا، وجاءنا الجواب منه بأنه كان يقوم بعهد مع أحد الجان ليستطيع الدفاع عنا في هذا العصر، سألنا نحن عمن سيهاجمنا، فيجيب هو بأن (جعفر) سيحاول قتلنا في أقرب فرصة، نعود نحن لنسأله ما الداعي لقتلنا فيسألنا عن اختفاء (أحمد عصفور) و (عمرو) بمجرد وصولنا ومواجهة (عَزّام) لجعفر.

- إيه حكايتك يا سيد (عمر) وعارف إيه عن اللي بيحصل؟، يمكن نستفاد منك؟

قالها (فرغلي) بطريقة مهذبة وهو يجلس بجانبي، و(راضي) يقف على باب غرفة (عمر)، تم صرف (سنقر) والخدم بالطبع قبل بدأ الحوار، قلت أنا بعدما رتبت جملة جيدة في عقلي:

- أستاذ (عمر) أنا معرفكش قبل اليومين دول، لكن الأمر الواقع إننا دخلنا في سكة ولو ماكملنهاش مع بعض هنموت كلنا.

الجملة التي قلتها كانت أفضل وهي في عقلي، الآن أشعر أنها مهلهلة ولن تجدي نفعًا، (عمر) يوزع نظراته علينا بثقة غريبة وهو يقول:

- (جابر عبد السيد) بعتني معاكم علشان أعمل محاولة.

حك (راضي) أنفه قائلًا:

- والله يا أستاذ (عمر) أنا ملاحظ إن مصر كلها بقت بتعمل محاولات علشان نرضي (جعفر).

- لا يا (راضي)، محاولتي إني آخد مكان أجدادي تاني، أكون مكان (جعفر) وأعيد تشكيل كل حاجة من الأول.

- طب ما كنت تعمل كده قبل ما تيجي معانا.

قلتها أنا.

- في الزمن ده إحنا بعيد عن إيد (جعفر)، أو على الأقل هو هنا أضعف.

- وإيه الطريقة اللي هتنفذ بيها محاولتك دي؟

- إني ابني غرفة أنا حافظ تصميمها هتديني فرصة واحدة أكون مكان (جعفر) وأستعيد السيطرة على البيت.

- أيوه إزاي يعني؟

قالها (راضي)، فقال (عمر):

- الشنط اللي جينا بيها فيها الأدوات اللي هتخليني..

قاطعه (راضي) متململًا:

- يا سيدي إزاي هتسيطر على أم البيت، يعني فيه مفتاح مثلًا زي مفتاح العربية هتدخله في بيت (أبو خطوة) وتدور الكونتاكت وتسوق بينا ولّا هتعمل إيه؟

- تحت بيت جدي فيه غرف كتير، منها غرفة لو دخلتها ممكن أعيد السيطرة تاني.

- ممكن!!!

قلتها مستنكرًا والغضب ينفر عروقي لكن (فرغلي) قال بحسم:

- بكرة هنحتاج (عَزّام) علشان يدخلنا بيته، اللي هو بيت جدودك يا سيد (عمر)، وهناك هنعرف إنت تقصد إيه.

قالها وغادر الغرفة بجدية زائدة وهو يرتطم براضي، تبادلنا النظرات فعاد (فرغلي) لنا وهو يدعونا لننام في غرفنا حتى شروق الشمس.

***

حتى هنا في هذا العصر هناك ما يشبه ماركات السيارات، ولكنها تطبق في شكل العربات الخشبية التي تجرها الأحصنة، (فرغلي) يمتلك أسطولًا منها بمقاسات وأحجام مختلفة والفارق واضح بين عربة (فرغلي) التي نستقلها الآن، وعربة (عزّام) التي انحشرنا فيها بالأمس، فنحن نجلس الآن داخل عربة كبيرة مغطاء بأربعة مقاعد داخلية وثيرة، يواجه مقعدان منها الاثنين الآخرين.. ولها سائق خاص يسيطر على أربعة أحصنة يجرونها، ملابسنا الآن كملابس الجميع وإن كنت لم أرتح بعد لهذا الحزام الملفوف حول الوسط، (فرغلي) أخبرني أنه نوع من الزينة أو على حسب تعبيره (دا عشان القيامة والفخامة والروشنة).

أربعتنا نجلس في العربة و(فرغلي) يحمل غليون تدخينه الذي يشبه زعزوع القصب و(راضي) يحتضن الغليون الذي أعطاه إياه (فرغلي) بحب وهو يقول:

- أنا عمال أشبه على العربية اللي إحنا راكبينها دي من شوية، ودلوقت افتكرت أنا شُفتها فين.

- فين؟

- في كارتون سندريلا، الخالق الناطق يا عم (فرغلي).

(عمر) الصامت بيننا لم ينفك عن تحريك شفتيه همسًا كأنه يخاطب نفسه، وكلنا انتبهنا إلى ذلك بالطبع، لكني حاولت الكلام مع (فرغلي) حتى وعيني متعلقة بعمر لا إراديًا.

- إلا إنت يا (فرغلي) اللي فاتح محل العصير اللي أنا شُفته إمبارح؟

- لو بتتكلم على عصاير (فرغلي) يبقى أنا، دا إنت لسه ماشُفتش سلسلة مطاعم كنتاكي، هي لسه مانجحتش وبقدم فيها دلوقت حواوشي وكبدة وسجق لكن مسيري أعرف سر الخلطة.

- وإنت إيه اللي معطلك؟

- ما أنا لسه قايل ما أعرفش سر الخلطة، وفكرني بقى أدوقك كشري الخديوي.

رد (راضي):

- إنت كده مابتغيرش في التاريخ؟ يعني مصر لسه ماعرفتش الكشري.

- التاريخ هايحذف كل اللي أنا بعمله، ومصر مين اللي ماتعرفش الكشري، دا أنا لقيت نص الصعيد عارفاه وبياكلوه خصوصًا أيام صيام المسيحيين، هو مش نفس الكشري بالظبط اللي إحنا عارفينه لكنهم عارفينه باسمه و...

توقفت العربة وانفتح باب العربة من طرف السائق، نزلنا منها على سلم خشبي صغير وضعه السائق، ها هو منزل (أبو خطوة) في هذا العصر، وأمامه يقف (عَزّام) وحوله رجال حراسة تعرفت على أحدهم فقد رأيته في حراسة قصر (فرغلي) بالأمس، لقد سبقنا بعض رجاله إلى هنا في عربة خاصة بهم، الفارق أنهم لا يحملون البنادق بل يدسون الغدارات في أحزمتهم القماشية الملونة واقفين منتصبي الظهر على جانبي (عَزّام) الذي تعلقت عينيه بعمر حتى وهو يخاطب (فرغلي) بتبجيل.

- نورت بيتك التاني يا بك، اتفضلوا.

أشار لنا بالدخول، وهو يسبقنا إلى الداخل ونحن نمر بالقاعة الخالية، ثم نقف في ساحة المنزل الذي تحيط بها أبواب القاعات، تلك الساحة التي استيقظت أنا بها بالأمس، قال (فرغلي) بجدية:

- معلم (عَزّام)، الرجالة دي جاية تصلح غلطة كبيرة ومحتاجين مساعدتك.

- الحاجات الغريبة اللي كانت في البيت إمبارح أنا حطيتها في...

قاطعه (فرغلي):

- أنا عايزك تنزلهم عند الخبيئة.

صعق (عَزّام) فقال (فرغلي) بسرعة:

- بلاش تزيط يا معلم، ما إنت نزلتني قبل كده مرتين.

- إنت ثقة يا بك، لكن هما مش مضمونين، والدليل إن الولد ده بقى معاه روحانية على الخاتم اللي في إيده، وإمبارح كان طبيعي.

أشار (عَزّام) بإصبعه ناحية (عمر) الذي قال بهدوء:

- تقدر خدمتك تستجوب قريني، وتعرف منها...

قاطعه (عَزّام) بخبث:

- خلاص بعد اللي شُفته إمبارح مش هاثق في أي حاجة من ناحيتكم، ربنا وحده يعلم إنتوا تعرفوا إيه ما أعرفوش.

ثم صمت كأنه يفكر في شيء، وقال:

- لو اعتبرت إنك حفيدي، قولي بتشتغل إيه في زمنك؟

أعتقد أن الفضول غلب (عَزّام) ليسأل هذا السؤال.

- اتعلمت من جدي (سيد أبو خطوة) إزاي أفتح المقابر وأفك رصدها، وإزاي أرصد المقابر بنفسي وأحميها.

- وتعرف إيه عن جدودك أصحاب الخطوة؟

- في حياتي ماعرفتش كتير لأن جدي (سيد) فضل إنه يدفن السر معاه وماعلمنيش أتعامل مع البيت اللي إحنا بنحميه.

- إنت كنت السبب في دخول الكلب اللي اسمه (جعفر) عند الخبيئة؟

- مش فاكر، في زمني حصلت حادثة وكان فيها (جعفر) بتجيلي منها ذكريات مش مترابطة.

مشى (عَزّام) أمامنا جيئًا وذهابًا وهو يقول:

- لو إنت مش حفيدي وبتخدعني وعايز تنزل تحت البيت ممكن تقلب كل حاجة وتبوظها، ولو كنت حفيدي وانقطع علم عندك فده معناه إن عيلة (أبو خطوة) انتهت والباب تحت هايبقى مفتوح لكل من هب ودب.

قال (راضي) مترددًا:

- معلش أنا مش عايز أتدخل في اللي ماليش فيه بس حضرتك بتهلك وقت على الفاضي، شوفلنا طريقة نخلص بيها وحياة أبوك.

توقف (عَزّام) عن المشي و(فرغلي) يقول:

- لو هو حفيدك فأكيد شايل دمك.

ابتسم (عَزّام) لفرغلي ممتنًّا وسار ناحية أحد أبواب القاعات المطلة على الساحة وهو يقول:

- تعالوا ورايا..

سجل عقلي ملاحظة غريبة قليلًا، في زمني منزل (أبو خطوة) كان يتمتع بالدفء الشديد داخله، لكن هذا المنزل مع تمتعه بالدفء إلا أنه أقل بكثير من المنزل في زمني.

دخلنا قاعة بسيطة بها بعض الأثاث، وقف (عَزّام) عند بضعة زخارف على الحائط وضغط على جزء فيها فسمعنا صوت طرقات معدنية داخل الجدار وانفتح جزء منه ببطءٍ شديد مظهرًا قاعة واسعة، لم ينسَ (راضي) أن يعلق بإحدى تعليقاته السخيفة عن مغارة علي بابا وافتح يا سمسم إلخ إلخ..

دخلنا القاعة الثانية وفيها رأيت الأرض تمتلئ بالزخارف المعدنية صانعة أشكال وتجاويف وتعاريج، تراجع (عمر) خطوة إلى الوراء وهو يقول:

- أنا شُفت الأرض دي قبل كده.

أدار (عَزّام) رأسه لعمر وقال:

- هنا مفيش خدع ولا الجن يقدر يدخل معانا، وباب الدخول هو إنت.

أخرج خنجرًا صغيرًا من حزامه فصرخ (راضي) قائلًا:

- إنت بتسلمنا تسليم أهالي يا (فرغلي).

طلب (عَزّام) من (عمر) أنْ يمد يده اليمنى ففعل، أحدث قطعًا صغيرًا في ساعده فسالت الدماء و(عَزّام) يأمره بأن يسير على النقوش الأرضية ليتساقط دمه عليها، فعل بتسليم شديد، ارتجت القاعة فجأة و(عَزّام) يأمرنا بالابتعاد عن النقوش.. وانفتحت الأرض من منتصفها ليظهر سلم طويل، خلع (عَزّام) حزامه القماشي ولف به يد (عمر) بلهفة، وهو يبتسم له ويقول:

- أهلًا بيك في بيت جدودك يا بني.

قال (راضي):

- يا حاج (عَزّام) الجرح ده ممكن يتلوث والراجل يموت فطيس.

- هاطهره بالنار لما نطلع.

قالها (عَزّام) وهو ينزل درجات السلم للأسفل، و(راضي) يعترض على فكرة سلخ جلد (عمر) لمجرد التطهير، تبعناه ونحن نشاهد الكرات المضاءة على جانبي السلم و(راضي) يقول مبهورًا.

- دي لمض منورة يا جماعة، فيه مصدر بيولد الكهربا هنا، بس مولد إيه اللي شغال عمال على بطال ده؟

همست في أذنه بالعبارة التي قالها لنا (جعفر):

- مفاعل نووي.

فجأة صرخ (عَزّام) من أسفلنا أن نغلق أعيننا، فعلنا كالكلاب فهو في هذا المكان السيد ولن نحتمل أخطاء أو سهوًا من أي نوع، شعرت بضوء قوي بالقرب من عيني برغم إغماضها، لكن (عزام) أمرنا بفتح أعيننا بعد دقيقة وصوته هذه المرة كان بأسفل السلم لدرجة أننا سمعناه بصعوبة، أكملنا الطريق على الدرج والدفء يتزايد لكن بمعدل بسيط حتى وصلنا إلى قاعة كبيرة جدًّا تذكرناها أنا و(راضي) لأن (جعفر) خاطبنا بها، هي هي نفس القاعة، ولكن لم أعرق كثيرًا كما كنت في حضرة (جعفر).

وقف (عَزّام) وسط القاعة، وقال بطريقة مسرحية:

- لأنكم مش من زمنًا، وفي نفس الوقت ضيوف (فرغلي بك المستكاوي)، والأهم إن بينك حفيدي ووريثي فأنا هاحكي ليكم إنتوا فين.

همس (راضي) بأذني:

- يا رب نخلص.

قال (عَزّام) وكأنه يتقمص شخصية مرشد سياحي:

- إنتوا هنا في مدخل أرض الحقيقة، عالم مايدخلوش إلا المصطفين، كانت مداخله مالية المعمورة زمان.

- أكيد مش المعمورة المصيف صح؟

صرخت في (راضي) بعصبية حقيقية أن يخرس، فأكمل (عَزّام):

- قبل زمن ملوك مصر وقبل زمن فرعون بآلاف السنين كانت أرضنا جنة، وأهلنا بيدخلوا لأرض الحقيقة ويعيشوا مع سكانها، وأهل أرض الحقيقة بيعيشوا معانا، نعلمهم ويعلمونا، لحد ما قامت حرب في أرض مصر عند جبل المقطم، واتسفكت دماء المصريين ودماء أهل أرض الحقيقة، حكام عالم أرض الحقيقة وحكام أرض مصر اتفقوا يسدوا المداخل اللي بتربط بين العالمين ويحطوا على كل مدخل فيهم حارس واحد يحرسها ويمنع دخول أو خروج حد إلا بإذن من ملوك الأرضين، وعلى كل مدخل اندفن ملك من ملوكهم اللي علمونا أسرارهم، ومن ناحية المدخل اللي في أرضهم اندفن في كل مدخل ملك من ملوك مصر اللي علِّموا أهل أرض الحقيقة

أسرارنا.. في مصر كان فيه 9 مداخل، كلها اتسدت إلا المدخل اللي هنا ومدخل تاني.

- إيه اللي سدهم؟

قلت سؤالي بفضول قاتل محاولًا تفسير كلماته بطريقة أكثر عقلانية وعلمية فقال:

- لكل مدخل عيلة تورث سره وطريقة حمايته، وياما حصلت حروب على المداخل دي لكن إحنا كحراس كنا بننتصر في النهاية بفضل الخبيئة، فيه مداخل ماتت عائلتها من غير متورث سرها واتنسى مكانها، المداخل التسعة مربوطة ببعض وبتحمي بعضها علشان لو حارس من الحراس حب يغير في الزمن أكتر من يوم يتدخل حارس لمدخل تاني ويوقفه، وآخر عيلة كانت بتحمي مدخل تاني غير ده انتهت من أيام الظاهر (بيبرس) ومدخلهم كان..

قاطعه (عمر) بسرعة:

- كان في الجيزة في (دهشور).

نظر له (عزّام) بإعجاب وهو يقول:

- الظاهر إن جدك عرفك حاجات قبل ما يموت.

ثم أكمل قائلًا:

- لكل حارس مدخل خبيئة بيورثها وهي اللي تخليه ينتصر على أي حد يحاول يدخل.. لو حسينا بالفشل وإن الهزيمة بتقرب بنستخدم خبيئتنا.

قال عبارته وهو يسير ناحية ممرٍّ جانبيٍّ ويقف أمامه، اقتربنا من الممر فوجدت مقعدًا يجلس عليه رجل مغطى بقماشة سوداء كبيرة و(عَزّام) يقول:

- بنرجع في الزمن ليوم واحد ونعيد الصراع لحد ما ننتصر، ونبقى من أصحاب الخطوة، زي أول حارس من جدودنا كان هنا واللي متغطي بيها دي الخبيئة.

تكلم (فرغلي) لأول مرة منذ نزلنا إلى هنا، وقال:

- الخبيئة بتاعتك يا (عَزّام) اتكلم عنها (ابن عربي) وقال إنكم بتلبسوها للناس اللي بتعبر لأرض الحقيقة.

- دا كان زمان، العبور ممنوع دلوقت، والخبيئة إحنا اللي بنلبسها علشان نتحرك في الزمن لكن لازم نكون بنتحرك هنا، عند المدخل.

أزاحنا (راضي) من طريقه وهو يتجه إلى عزام ويقول:

- يعني ماتقدروش ترجعوا بالزمن لأي مكان؟

- لا.. لو عايزين نرجع ليوم في الماضي بنرجع هنا ونطلع بعديها لفوق ونعيش اليوم عادي.

صرخ (راضي):

- التعويض المكاني؟

- مش ناقصة كلام مش مفهوم، إيه اللي بتقوله ده؟

- دا افتراض في السفر عبر الزمن بيلغي احتماليته، لأن كل مكان في الكرة الأرضية بيحصل فيه تغيير دايم، يعني لو أنا هسافر في الزمن وأرجع الماضي أو أروح المستقبل مثلًا وحبيت أروح بيتي مثلًا فمفيش أي ضمان إن بيتي يكون موجود في الماضي، ممكن يكون كان مكان عمارة تانية وساعتها لو أنا اتنقلت في نفس مكان بيتي جسمي هايتفرتك بمجرد ما يصطدم بأي شيء مكانه.

طلب (فرغلي) تفسيرًا أكثر فحاول (راضي) أن يشرح مثالًا عن أن منزل فرغلي يتحرك الناس في غرفه ليل نهار فإن سافرت إلى الماضي وطلبت بشكل ما أن أكون في غرفة بمنزل (فرغلي) فلا ضامن من أن يكون أحد الأشخاص متواجدًا في نفس الغرفة لحظة وصولي إلى المنزل وستختلط ذراتنا بعضها البعض؛ لهذا في السفر زمنيًا مستحيل بسبب تغيرات الأرض، لكن هنا في تلك تحت منزل (أبو خطوة) لا يوجد بناء لآلاف السنين؛ لذلك فاحتمالات الخطر أقل بكثير لمن يسافر زمنيًا.

أضاف (عَزّام) بحزم:

- بس أصحاب الخطوةماينفعش يسافروا أكتر من يوم، وإلا هنصطدم بالزمن وجنوده اللي هايرجعوا أي تغيير ويصلحوه.

- (ستيفن هوكينج) لو سمعك هايضربك بالنار.

- مين ده؟

ردَّ (عَزّام) على (راضي) الذي فتح فمه ليتكلم لكني سبقته قائلًا:

- ولو قدرت تغير في الزمن هايحصل إيه؟

سكت (عَزّام) مفكرًا ثم قال:

- زي ما قلت لفرغلي بك قبليكم، الزمن مش هايتغير، لكن هايفتح زمن جديد وقته قصير علشان يستوعب التغيير اللي حصل، وبعد فترة الزمن ده هايتدمر لوحده.

قال (راضي) مبهورًا:

- يا حاج (عَزّام) إنت نص كلامك شعوذة وعجائب وغرائب، بس النص التاني موزون ولا كأنك بتشرح النظرية النسبية الخاصة.

هنا قال (عمر) لجده:

- وإزاي بنتحرك في الزمن؟

تخطى (عَزّام) المقعد في بداية الممر وسار إلى الأمام، ونحن وراءه نحاول ألا تصطدم أجزاء جسدنا بالجثة المغطاة ولا بالغطاء نفسه، على جانب الممر غرفتان، مرَّ (عَزّام) على أولهما، وقال:

- هنا مدفون ملك من ملوك أرض الحقيقة أو أرض السمسمة، والمدخل بتاع الأرض من هنا برضو.

ألقيت نظرة على الغرفة فوجدتها منحوتة في الصخر على حسب علمي الهندسي البدائي، يتوسطها تابوت ضخم طويل من الحجر.. أين المدخل الذي يخبرنا عنه؟

- ودي غرفة أصحاب الخطوة.

وأشار بيده ناحية الغرفة التي تليها فوقفنا على بابها، مساحتها متوسطة لكن هناك عند كل حائط من حوائطها الثلاثة لوحات معدنية مزخرفة بتقاطعات غريبة، سأل (راضي):

- إزاي بتسافر في الزمن؟

- بيدخل الحارس إلى الغرفة وبيفكر في وقت معين يرجعله.

- يا سلام بالسهولة دي؟

- آه.

قطب (راضي) جبينه مفكرًا ثم قال:

- يعني على حسب تفكيرك بتتنقل للزمن المطلوب.. بس (جعفر) مدخلش الأوضة دي لما نقلنا، هو رمى علينا الخبيئة بتاعتكم وبس.

ردَّ (عمر) حزينًا:

- لأن جسم (جعفر) مابقاش محتاج الأوضة علشان تشحنه، خلاص هو مش محتاج أكتر من إنه يفكر.

- (جابر) اللي قالك كده؟

قلتها فهز رأسه بالإيجاب، فردَّ (راضي):

- (جابر) بيوصف الفيزياء الكمية ونظرياتها، إدراكنا للعالم هو اللي مخلي العالم حوالينا بالشكل ده، لو إدراكنا اتغير هايتغير العالم حوالينا.. وعشان كده فيه أبعاد للزمان والمكان موجودة لو إحنا أدركناها، (جعفر) مخه بينشئ العوالم.

كاد (عمر) أن يدخل من باب الغرفة لكن يد (عَزّام) اعترضته، وهو يقول:

- إوعى يا ابني، لازم الدخول ليها يكون وإنت لابس الخبيئة.

- طب ما يلبس الخبيئة قشطة.

قالها (راضي) فردَّ عليه (فرغلي):

- هو يلبس الخبيئة وإحنا نلبس كلنا في الحيط، إنت ناسي إن (جعفر) بيستخدم نفس الأوضة ويتحرك بالزمن، تضمن إن (عمر) مايغيرش حاجة دلوقت وتأثر على (جعفر) في المستقبل ومانعرفش مين هايموت المرة دي؟

- هو إنتوا لسه مش فاهمين إحنا فين؟

قالها (راضي) وهو ينظر لنا، ثم أكمل وهو يغادر الممر:

- إحنا عالم أدركه (جعفر)، حاول يغير في زمنه الأصلي فظهر زمنّا إحنا، و(جعفر) بيملاه بالأحداث علشان يحافظ عليه أطول فترة، كده كده خربانة.

- (راضي) بيتكلم صح.

قالها (عمر) وأكمل:

- وأنا هاعمق الزمن بأطول فترة أحداث لكن بعد ما أفصل (جعفر) عن بيت أبو خطوة.

***

1970

انتهى طبيب التشريح الجنائي الذي استدعاه (جابر) بشكل رسمي من تشريح الجثة الملفوفة بالحبال والتي نقلها إلى ثلاجة مشرحة حلوان بشكل سري، التف (جابر) والطبيب حول منضدة التشريح بينما وقف (حلمي) في طرف الغرفة يغطي أنفه بمنديل قماشي يتنفس منه بصعوبة.

- يا دكتور (جابر) أنا مش قادر أديلك تفاصيل عن الجثة.

- بس جزء كبير من الجثة لسه محفوظ.

- أيوه بس هو مش محفوظ في فورمالين علشان أفحصه، يعني المعدة أتحلل معظمها وما أقدرش أفحصها، القلب والكبد انتهوا خلاص مش هاوصل معاهم لحاجة.

- طب إيه اللي ممكن تستخلصه؟

أشار الطبيب إلى الجثة وقال:

- فيه جروح دفاعية سلبية في مناطق متفرقة من الجلد، وكدة يبقى الكسور اللي في القفص الصدري وعضم الساعد أرجح إنها جروح دفاعية سلبية هي كمان، يعني صاحب الجثة كان بيدافع عن نفسه ضد هجوم شديد بإنه يتلقى الهجوم في

أجزاء جسمه بس طبعًا ماقدرش يتجنب الإصابات.. أنا مش فاهم إنتوا محتاجين تفحصوا جثة لبسها بيقول إنها من 100 سنة ليه؟

- طلبات من الرئاسة، المهم قولي الخاتم اللي معاه أقدر أستلمه إمتى؟

خلع الطبيب قفازيه واتجه إلى منضدة قريبة عليها وعاء يمتلئ بسائل أبيض وهو يقول:

- ممكن دلوقت، أنا نقعت الخاتم اللي كان في إيد الضحية في محلول عملته علشان أشيل الصدأ، هو جاهز دلوقت.

أمسك الطبيب بملقاط كبير نظيف وسحب خاتمًا من الوعاء، وضعه في قطعة قماش أخذ ينظفها جيدًا حتى ظهرت بعض ملامحها بشكل جيد، أعطى الخاتم لجابر الذي قرَّبه من عينيه مدققًا في تفاصيله وتفاصيل النقوش المنحوتة عليه بعناية.. ظهر الحزن على قسمات وجهه وهو يزفر نفسًا حارًا من صدره ويقول:

- شكرًا يا دكتور لتعبك معانا، تقدر تتفضل دلوقت وأنا هاخرج بعديك بشوية.

غادر الطبيب ببساطة و(حلمي) يقول معترضًا:

- كنا نمشي معاه يا أخي ونتكلم بره براحتنا بدل القرف اللي هنا.

نظر له (جابر) ورفع الخاتم ليراه (حلمي) وقال:

- أنا عرفت مين صاحب الجثة.

- مش إنت عارف إنه (فرغلي) صاحبك؟

- لا مش هو، ده (عمر أبو خطوة) اللي علمني عن الجن في شبابي لما كنت في 2005.

أنزل (حلمي) المنديل من على أنفه وقال بدهشة:

- يعني (حسام) كدب عليك لما زارنا من كام سنة؟

- مش كده وبس، أنا في المستقبل بعت (عمر) لعصر (محمد علي باشا) مع فريق التصوير وماكانش معاهم الكرة اللي مع (أليكسندر)، وأكيد (حسام) كان عارف ده ومع ذلك طلب مني أدخل لمقبرة (فرغلي) اللي في باسوس، تفتكر ليه؟

- مش عارف.

- علشان الرصد اللي فيها يشتغل ويقتلني، (حسام) بيحاول ينتقم مني على اللي عملته فيهم لما هابعتهم للماضي.

***

بعد صعودنا إلى المنزل مرة ثانية، قال (عمر) لفرغلي:

- عايزين ناخد معدات التصوير لبيتك علشان هافكها وآخد منها أجزاء علشان أبني أوضة زي الأوضة اللي تحت البيت.

أوقفه (عزّام) بيده قائلًا:

- إنت عايز تعمل كده ليه؟

- محتاج أوصل لنقطة في سنة 2005 وقت ما حصلتلي الحادثة، أقدر أوقف (جعفر) وأكون مكانه قبل ما يعرف يسافر في الزمن.

- لكن إنت مش فاهم لو سافرت لمرة واحدة أبعد من يوم هايحصل إيه.

قالها (عزّام) بغضب فنظرنا له منتظرين أن يكمل.

- هاتبقى حارس للمدخل ومش هتقدر تسيبه زي (جعفر)، وهتموت في الآخر.

- يمكن أكون أحسن من (جعفر) و...

توقف عن الكلام والألم المعروف يعود إلى رؤوسنا جميعًا، (جعفر) هنا أو سيظهر، قبل أنا أفكر أنا في تلك الخاطرة وجدت

(عمر) يرفع يده ذات الخاتم ويصرخ بكلمات غير مفهومة مرددًا إياها أكثر من مرة ثم قال بعدها (أحضِروا واحبسوا من يدخل لحضرتنا)، انقلب الموقف لسيرك عندما أمسك (عَزّام) هو الآخر رأسه متألمًا وهو يردد شيئًا من التعاويذ في نفس وقت ظهور البخار الأبيض واللون الأزرق ينبض داخله وهو يقترب من (راضي) و(عمر).

ابتعد البخار قليلًا عنهم وظهر داخله جسد رجل لثانية وهو ينظر لنا، فجأة اختفى البخار واكتشفنا أن داخله ليس شخصًا واحدًا بل اثنين، (جعفر) أحدهم وهو ينظر حوله كأنه يبحث عن شخصٍ، أما الثاني فقد صعد من الأرض من خلف (جعفر) وتشكل جسده ووجهه، الثاني هو أنا.. (حسام) الآخر الذي رآه (راضي) من قبل، نظر لنا هذا الآخر لثانية قبل أن يلتحم مع جسد (جعفر) ويدخله وجسد الاثنين يتحول إلى ضباب في جزءٍ من الثانية ثم ينقشع البخار الأبيض وتزول آلام الرأس تاركة الجميع في حيرة ما عدا (عمر)، الجميع نظر لي بدهشة ما عدا هو، (راضي) رآه مرة في السابق ومع ذلك ظهر الذعر الآن على وجهه، أما (عمر) فتعامل بشكل أكثر توقعًا مع الحدث.

قبل أن ينطق أحدنا بكلمة دوى صوت طرقات قوية على

الباب الخارجي للمنزل، أشار لنا (عَزّام) بأن نبقى في أماكننا وذهب هو إلى الباب الخارجي ثم عاد، لم يكن وحده بل معه أكثر من عشرين جنديًا في ملابس عسكرية مهيبة ويحمل جميعهم البنادق ذات الماسورة الطويلة ويحيطون بنا بتناغم عسكري جمد الدم في عروقي، (عَزّام) يظهر على وجهه الرعب ورجل كبير السن أشيب اللحية بملابس عسكرية يتقدم الجنود ويقف أمامنا وهو يحمل ورقة كبيرة، ابتسم (فرغلي) بود وهو يصيح:

- (سليمان بك البواب) والله ليك وحشة.. أخبار الأنجال والأحفاد إيه؟ بتشوف (حوكشة الصريطي) و...

رفع الرجل يده أمامه ليوقف (فرغلي) عن الاسترسال ثم قال:

- تحياتي لك يا بك، لكن أنا هنا بأمر عالي.

انتفض (عَزّام) وظهرت الخيبة على وجه (فرغلي) والرجل يقول بصوت جهوري:

- بأمر من جناب خديو مصر والشام وممهور بختمه يطلب منك صاحب العزة والمقام (محمد علي باشا) حفظه الله وأدام خيره بأن تحضر للمثول أمامه إنت ومن معك في ساعة الاستماع.

أنهى الرجل العبارة وأعطى الورقة إلى فرغلي الذي قرأها بسرعة ونظر إلى الرجل قائلًا:

- هو الخديوي مقريف النهارده؟

***

الفصل العاشر

ينتهي كما بدأ

1836

نسخ كثيرة من (جعفر).. هناك نسخة ثانية مني وتمتلك قوة غريبة تشبه قوة (جعفر).. هذا العالم يمتلئ بالنسخ المستقبلية والقديمة، يتشاجرون مع بعضهم جميعًا كالأطفال، الآن لن أندهش لو ظهرت خالتي تخبرني أنها أتت من المستقبل أو الماضي لتقول لي السر الذي لن أتوقعه، وهي أنها أنا في النهاية.. أقول هذا بناء على كلمات (عمر) التي أخبرني بها الآن ونحن جميعًا ما عدا (فرغلي) نركب عربة خشبية مغلقة يطلقون عليها عربة الترحيل وهذا الاسم أعرفه في زمني بالطبع الفرق أنها تجر بالأحصنة، بينما (فرغلي) فهو في عربة كارتون سندريلا خاصته لكن معه حارسان.

بعد ربع ساعة من دخولنا إلى عربة الترحيل واتجاهها إلى قلعة (محمد علي باشا) تكلم (عمر)، أفضى بكل ما عنده كأنه يتخلص من ثقل يحمله، حكى من أول فقدانه الذاكرة عام 2005 إلى عام 2007 عندما كشف (جابر) أوراقه أمامه

وأخبره بأنه (جعفر) وأنهم يمرون بدائرة مفرغة لا تنتهي، حتى علم تفاصيل عن (حسام) الذي جاء من الماضي ليأمرهم بإرسالنا لبناء غرفة حدد هو تفاصيلها بدقة وموضعها وطريقة عملها التي تحاكي عمل منزل (أبو خطوة) لكن بطريقة أبسط تجعل (عمر) يستطيع الانتقال لمرة واحدة فقط دون عباءة إلى منزل (أبو خطوة)، وكيف أن (حسام) هذا -الذي من المفترض أنه أنا- طلب من (عمر) ألا يخبرنا بشيء كي لا يتأثر الزمن.

الآن بعد ظهور (حسام) الذي هو شخصيتي المستقبلية بهذا الحال فهذا الشخص كان يكذب، ولكن ما سبب أنني رأيت صراع مشابهة للذي حدث منذ قليل بين (جعفر) وبين نفسي ولكن قبل السفر إلى هنا و(جعفر) يخبرني وقتها أنه يثق في!! كيف وهو يراني أصارعه؟ أم أنه لم يكن قد علم بعد أم ماذا، رويت لهم ما رأيته فألقى (راضي) برأسه على كفيه وهو يزوم ويقول بحسرة:

- أنا دماغي لفت يابا.

توقفت العربة فجأة وانفتح بابها الخلفي لنرى الجنود يأمروننا بالنزول، لمحت عربة (فرغلي) تدخل من باب صغير في سور قلعة كبيرة، بالتأكيد هي القلعة التي أعرفها بزمني

لكنها متغيرة الشكل بـ180 درجة، أعتقد أنها أكثر خشونة وحدة وخاصة مع كمية الخيام المنصوبة أمامها ووقوف عشرات الجنود المدججين بالبنادق في موضع نزولنا من العربة.

أدخلونا من باب آخر أعتقد أنه خاص جدًّا، بالطبع تأكدت شكوكي عندما عبرنا هذا الباب لنسير في مجموعة ممرات معقدة أفضت بنا إلى قاعة فسيحة يقف بها بضعة رجال.

- اقلعوا ملط.

لو كنت سمعت عن التفتيش الذاتي فأبشرك أنه لا شيء أمام ما رأيناه، لم يفتشونا ذاتيًّا فقط بل قاموا بعد أسناننا وسجلوها، ربما لن تصدق أنهم أعادوا تفتيشنا ثلاث مرات وكل مرة بإهانة أكثر من السابقة، أعطونا ملابس جديدة لنرتديها وبدأوا في سؤال كل منا منفردًا عن اسمه وبلدته وحياته وعلاقته بالبقية وبفرغلي.. طبعًا فضح أمرنا لأنَّ كلًّا منا قام بتأليف قصة مختلفة عن الآخرين.

أخذونا وألقونا في غرفة معزولة لمدة لا تزيد عن نصف ساعة جاءنا رجل بعدها عليه خيلاء وهيبة وحوله بضعة جنود قال لنا بلهجة مصرية متكسرة:

- إنتوا كذابين، ومع كده الباشا عايز يشوفكم.

كبلوا أيدينا بأغلال حديدة تتصل بسلسلة مع أقدامنا واقتادونا إلى الخارج لنسير في ساحات القلعة حتى دخلنا مبنى عادي ربما كان قصر (فرغلي) يدل على الترف أكثر منه.

داخل المبنى صعدنا كثيرًا حتى أوقفونا أمام باب خشبي كبير وقديم في نفس الوقت، عند الباب وجدت (فرغلي) يتحدث مع هذا الرجل المدعو (سليمان البواب) بطريقة توحي بوجود مصيبة، كنت أعتقد أن (فرغلي) قابل الباشا قبلنا وربما اعتقله، لكنه على ما يبدو لم يدخل له بعد لأنه جرى ناحيتنا وهو يقول:

- دا إحنا هانتنفخ جوه لما ندخل.

عاد لسليمان مرة ثانية بينما أنا أشعر بحكة في رقبتي مع صوت أنفاس عند أذني اليمنى وكلما نظرت على يميني لم أجد شيئًا، انفتح الباب وخرج منه بعد الرجال وأحدهم يرتدي بذلة هزلية كالتي نرتديها في عصري، لكنها مضحكة فعلًا، خرج رجل إلينا وهو يدعو (فرغلي) إلى الدخول ويشير لنا نحن أيضًا، هنا همس صوت في أذني يقول:

- ماتخافش.

تصلبت لثوانٍ بموضعي صدمة لكن أحد الحراس جرني معه لندخل إلى القاعة، قاعة تمتلئ بالأثاث الذي هو خليط

من الإسلامي والأوربي القديم وإن كنت أرى أنه خليط غير متجانس يجلس ثلاثة رجال على مقاعد يكتب أحدهم على ورقة شيئًا ما والاثنان الباقيان ينظران لنا بترقب، عيني كانت تتجول بحرية في القاعة حتى اصطدمت بعين (محمد علي باشا) التي كانت تتأملني.. لا لم تكن تتأمل بل تخترق روحي، هذه العين تعودت على التحديق طويلًا بدون أن ترمش، هو كما صورته اللوحات القديمة لكنه أقصر مما تخيلته قليلًا ولم يكن ممتلئ الجسد إلى هذا الحد.

لا أعرف هل يشع الرجل هيبة وخوفًا، أم لأنني درسته في التاريخ بطفولتي يأتيني هذا الشعور، بعد تفكير لثوانٍ وبعد تركيزه نظراته عليَّ وحدي تأكدت أنه كتلة من الرعب تمشي على الأرض، بغض النظر عن أنه كان يجلس الآن على مقعد وثير، أين هي الأريكة التي يرسمونها دومًا وهو يتكئ عليها؟؟

تقدمنا (فرغلي) رافعًا يده اليمنى عاليًا وهو يصيح مبتسمًا:

- باشا مصر.

لو كنت مكان (محمد علي) الآن لأمرت بضرب عنق (فرغلي)، لكنه أدار عينيه من عليّ ووجَّهَها إلى (فرغلي) وقال بوجه صلب بلا تعبيرات وبلهجة مصرية تحمل لكنة غريبة:

- ماجتش تبارك إمبارح ليه يا (فرغلي) بك؟

قرأت في مكانٍ ما أن (محمد علي باشا) لم يكن يعرف العربية نهائيًّا، هل هو تغيير في أحداث التاريخ أم معلومة ضائعة بين الكتب!

- كل سنة وأنت طيب يا باشا.. تعيش وتفتكر.

قالها (فرغلي) بعشم زائد فرد عليه الوالي:

- إمبارح صكينا أول جنية مصري وأول قرش وأول بارة.

في عبارته شيء ما من الابتسام أكاد أقسم إنني أشعر به، ولم أراه على وجهه، أعتقد أنه يحب (فرغلي) أو يستلطفه.

- ولّا كنت مشغول مع ضيوفك؟

قالها الوالي فهز (فرغلي) رأسه باستسلام وقال:

- الصراحة آه، أصلهم جم على غفلة.

تكلم أحد الرجال الجالسين بود شديد:

- إمبارح فيه تقرير وصلنا من دار الشرطة العمومية عن حادثة تواجد أجانب بدون تصاريح من قنصليتهم، وإنهم تبعك وضيوفك، وبعد التحري والاستفسار جالنا النبأ إنهم خرجوا من دار السيد (عَزّام أبو خطوة) الواقعة بالقرب من باسوس، واتجهوا لمنزلكم الكريم، واليوم ظهروا بملابس أولاد البلد واتجهتم كلكم لدار السيد (عَزّام) مرة ثانية.

- تعرف (فرغلي) بك معناه إيه مستشاري يستقبل أجانب بطريقة مريبة في بيته ويلبسهم لبس مصري؟

قالها الوالي بصوته الرنان الحامل بعض الغضب، فردَّ عليه (فرغلي) بسرعة:

- أنا عارف مقامك إن فيه تخوفات في البلد كلها علشان المشاكل اللي بينا وبين الباب العالي في أسطنبول، لكن دول أصدقائي من زمن وأنا كنت بعتهم مهمة لخارج البلد كعيون ليا في اليونان.

نظر لي الوالي فجأة وأشار بإصبعه لاقترب منه، فاقتربت وهو يقول:

- شكلك بيقول إنك قائدهم، قولي، الكلام اللي بيقوله صح؟

في لحظة واحدة تداعت لرأسي كثير من الاحتمالات انتهت كلها إلى أننا في كل الأحوال واقعون في قبضته خاصة بعدما تم استجوابنا وظهر عدم توافق كلامنا؛ لذا قلت وأنا أحاول تمالك أعصابي:

- أنا مش قائدهم، وكلامه مش صح.

لم يظهر على وجهه شيء أو أيُّ تعبيرٍ يدل على سماعه لي من

الأساس، لا شيءَ إلا النظرة القوية الباردة التي يركزها عليَّ بدون أن يرمش جفنه، فأكملت من نفسي:

- هو خايف يقول لحضرتك الحقيقة فماتصدقش وإن كنت حضرتك مش هتصدقها لو قلتلهالك دلوقت.

لا إجابة منه ثانية، فقلت وعين (فرغلي) ترجوني أن أتوقف:

- إحنا جايين من المستقبل، وبالتحديد سنة 2007 ميلادي، وعندنا مهمة لازم نعملها هنا.

هذه المرة لم يحتفظ الوالي بوجهه الجامد بل ظهر تعبير الاستنكار على وجهه وهو يسند ذقنه الكثيفة على قبضة يده المغلقة ويقول:

- وإيه كمان؟

- مفيش حاجة تاني، أنا كنت صادق معاك وعارف إن الصدق مش هاينجيني منك.

- ليه؟

- علشان أنا لو كنت مكانك ماكنتش هاصدق.

صمت طويلًا وهو ينظر إلى عيني حتى قال:

- إنت مصدق نفسك، وأنا مش مصدق إن فيه واحد يكدب الكدبة دي قدامي، عندك دليل على كلامك؟

سمعت في أذني نفس الصوت الذي تخيلته منذ قليل ولكنه قال هذه المرة: "هاخرجك من هنا".

نظر (راضي) لي، لقد سمع الصوت معي، لست مجنونًا إذًا، لكن هذا الصوت أعرفه جيدًا.

- أكيد مش هنسافر في الزمن قدامك.

قالها (عمر) بتحدٍّ فنظر له الوالي وقال:

- إنت لابس على عنيك عدسات غريبة، دي منظار ضعف رؤية؟ جبتها منين من أوروبا؟

عاد الصوت ليهمس في أذني:

- وقف (عمر) عن اللي بيعمله، الجن مش هايساعده.

الملاحظة الأولى أنني تأكدت أن هذا الصوت لي، هذا صوتي وإن كنت غير واثق في نبرة الصوت فطريقة الكلام هي طريقتي، الملاحظة الثانية أنني فهمت تقريبًا أن (عمر) يأمر الجان بكلمات، لأنه كان كان يحرك شفتيه بلا صوت مسموع بعد أن سأله الوالي، انفتحت الكلابات المحيطة بمعصمي وقدمي وسقط جزءٌ منها كذا حدث مع (راضي) و(عزام) و(عمر) الذي ألقى ببقية السلاسل أرضًا وهو يقول:

- أعتقد إن ده دليل كافي على كلامنا.

سمعت صوت استلال سيوف وخناجر الحراس المحيطين بنا من أجربتها المعدنية ثم في أقل من ثانية وضعت تلك الأنصال على أعناقنا، وللعلم فهؤلاء الحراس يعلمون كيف يذبحون البشر جيدًا لأنني شعرت أن نصل خنجر يرتاح على وريدي الودجي برقبتي ويد الحارس الأخرى تمسك ذقني وتجذبها للخلف، لو تحركت لسنتيمتر واحد بأي اتجاه سيتمّ ذبحي بدون أدنى تأخير، بسبب ارتفاع ذقني للأعلى قليلًا تركز نظري على سقف القاعة لكني سمعت صوت الوالي يضحك ويقول:

- شُفت كتير من أمور السحر والشعوذة من وقت ما جيت مصر، ومش انتم يا علوج اللي هتخوفوني، جربوا تسحروا ونشوف مين أسرع، انتم ولّا الحراس.

صوت (فرغلي) يقول بلوعة:

- يا عزيز مصر اقبل شفاعتي وخلي الحراس يسيبوهم، أنا خدمتك عمري كله بإخلاص

- وأنا بحبك يا (فرغلي) بك، لكن الخيانة...

توقف صوت الوالي عن الحديث، أنا لا أراه لكني لم أفهم سبب قطع حديثه المفاجئ، ما هذا الدفء؟ لماذا ضغط الحارس أكثر على رقبتي؟ أصوات الرجال الجالسين بجانب

الوالي تستعيذ بالله من الشيطان وهناك أصوات جلبة بالقاعة.. صوت (فرغلي) يشهق، الوالي يقول كلمتين بلغة لم أفهمها ولكن يبدو الخوف على صوت.. ثم في النهاية سمعت صوتي يتردد ويقول بدون أن أحرك شفتي:

- وأنا موافق على التحدي، نشوف الحراس أسرع ولّا أنا.. قولهم يبعدوا السيوف عنهم يا مولانا.

صمت يلف القاعة لا يتردد داخله إلا أصوات استعاذة من الشيطان وبعد الأدعية غير المفهومة والتي تصدر من الحراس خلفنا، سمعت صوتي يتردد ثانية ويقول:

- لو عايزك تموت كنت قتلتك يا باشا، وإنت دلوقت شايف صدق كلامي.

صمت طويل ثانية قطعه صوت الوالي يقول:

- سيبوهم.

ارتفعت الأنصال من على أعناقنا في نفس الثانية من صدور الأمر وأنزلت رأسي لأرى ما توقعته، صورة مني تقف أمام الوالي لا يفصله عنه سوى متر واحد، وبرغم تمالك الوالي نفسه إلا أن القلق كان يظهر على وجهه بعينيه المتسعتين وفمه المفتوح الذي يتنفس منه ليأخذ أكبر قدرٍ من الهواء لرئتيه.

أما الصورة التي كانت نسخة مني والتي سأطلق عليها (حسام) الآخر فقد نظر ناحيتنا لأرى وجهه المليء بالحروق ويداه هما الأخريين حمراوان في بعض المناطق، وعلى وجهه إعياء شديد كأنه يتألم بصمت، ارتعشت صورته واهتزت كأنه صورة هولوجرامية ليست حقيقية، خطر لي أنه لو كان هذا الشيء هو أنا فأنا أحتاج لنظام غذائي سريع لإنقاص الوزن، كما لم أتوقع أن أكون بهذا القبح بعيدًا عن الحروق بوجهه، لو كان الناس يرونني على هذه الصورة فإن هيئتي مضحكة قليلًا كما أن صوتي مزعج.. لا يلومني أحد على تلك الخواطر التي قفزت برأسي في هذا الموقف الجاد؛ فالواحد لا يرى نفسه كثيرًا إلا إذا كان مجنونًا.

قال أحد الرجال الذين كانوا يجلسون منذ قليل لكنهم الآن واقفون يرتعدون خوفًا:

- إنت بسم الله الرحمن الرحيم من تحت الأرض؟

نظر له (حسام) الآخر ببساطة وهز رأسه نافيًا فارتعد الرجل أكثر بينما (فرغلي) يقول:

- والله الموضوع كبر على الفاضي يا باشا مصر، تيجي ننسى اللي حصل ده ونبدأ من جديد.

نظر له (حسام) الآخر والذي اختفى جزء من حروق وجهه وقال ببرود:

- هاننسى يا (فرغلي)، بس مش هاينفع نبدأ من جديد.

اختفى فجأة من مكانه وسمعت صرخة مكتومة من خلفي، نظرت للحارس ورائي فوجدته صريعًا على الأرض وجسده ووجهه وكفاه محترقون بالكامل عدا ملابسه، كذا بقية الحراس من خلفنا وإن كنت رأيت (حسام) الآخر يختفي ويظهر خلف كل حارس منهم ويده تشع ضوءًا أزرق يلمس كل حارس فيتفحم وجهه ويسقط، لن أبالغ إن قلت أن كل هذا حدثَ في ثانيتين وربما أقل حتى إن الحراس لم يفهم معظمهم ما حدث وانتهت قدرتهم على الاستيعاب وهم يسقطون واحدًا تلو الآخر.

نهض الوالي وهو يصرخ:

- خيانة.

لكن (حسام) الآخر ظهر أمامه فجأة وقال وهو يمد يده اليمنى ناحية رأسه:

- حراسك ممكن يقتلوهم من الخوف.

لمست يد (حسام) الآخر عمامة الوالي فسقط أرضًا، كذا فعل مع الثلاث رجال الباقيين، ونظر لنا و(فرغلي) يصرخ به:

- قتلت ناس مالهاش ذنب ليه؟؟

- كان لازم الوالي ينسى كل حاجة عنك وعنهم، والحراس مش هايستنوني لما...

قاطعه (راضي) قائلًا:

- إنت من أنهي عصر ولّا منين ولّا حكاية أمك إيه؟

سقط (حسام) الآخر على ركبتيه وعادت الحروق تزيد بجسده وعينيه تتعلق بعيني وهو يقول بوهن:

- من مستقبلكم، بس فشلت خلاص، كل ده ماكانش المفروض يحصل.

سار (عمر) ناحية (فرغلي) قائلًا:

- خدنا لبيتك بسرعة، لازم نبني الغرفة وأنا هاصلّح كل حاجة.

- إهربوا.. (جعفر) يقدر يعمل زيي ويجي ليكم في أي مكان.

قالها (حسام) الآخر بوهن أشد كأن وتيرة آلامه ترتفع تدريجيًّا:

- إنت بتتحرك في الزمان إزاي؟ المفروض (عمر) يكون هو اللي مكانك.

قلتها وأنا أخطو ناحيته و(فرغلي) يقول لعمر:

- إنت فاكر قاعة الحكم يحصل فيها كل القتل ده وهنعرف نخرج من هنا؟ باب القاعة لو اتفتح الحراس هايقتلونا.

قال (عزام) بثقة:

- الروحانية اللي معايا أنا و (عمر) هتأمن خروجنا.

لوح (فرغلي) يده باستهزاء وهو يقول:

- والنبي تقعدوا في حتة ناشفة إنتوا والجن اللي معاكم دول.

توقفت عين (فرغلي) عند المقعد الذي كان يجلس عليه الوالي، لمعت عيناه وهو يقول:

- إحنا ممكن نخرج.

جرى ناحية المقعد وعندما مرَّ بجسد (محمد علي باشا) المغشى عليه أخذ يرفع يده وينحني وهو يردد كالمجاذيب (باشا مصر.. باشا مصر)، ثم تخطاه حتى وصل إلى المقعد وأخذ يبحث في الحائط الملاصق لظهره وهو يقول بعصبية:

- حد يساعدني بسرعة يا بهايم.

- أيوه يعني نعمل إيه؟

قالها (راضي) وهو يجري ناحيته فردَّ (فرغلي) وهو يحاول خلع المقعد:

- فيه مهرب قديم للوالي معمول في حتة هنا.

شد الاثنان المقعد فتحرك معهم بعد بذل الكثير من الجهد، حتى انضم لهم (عمر) و (عزام) يساعدانهم وأنا أقف أمام (حسام) الآخر الذي بادلني النظرة وهو يقول بوهن:

- إنت مش فاهم حاجة، كان لازم كل حاجة تمشي صح علشان تتحول وتبقى أنا.

- طب اعمل أي حاجة، ارجع بالزمن قبل ما ندخل القاعة دي.

- ما أقدرش أرجع في الزمن إلا وأنا في (دهشور).

كما توقعت.. (حسام) الآخر يستخدم المدخل التاني كما يستخدم (جعفر) منزل (أبو خطوة)، قال لي وهو يكافح ألمًا ما:

- اهرب وحاول تحافظ على حياتك.. لو انت مت أنا كمان هموت.

ثم نظر لباب القاعة وقال:

- وأنا هحاول ألغي تفاصيل وجودكم النهارده من دماغ كل اللي شافوكم في القلعة.

فجأة اتسعت عيناه وهو يقول بخوف:

- (جعفر)..

أعتقد أن (فرغلي) والبقية أزاحوا المقعد في تلك اللحظة، فظهر في الجدار خلف المقعد فتحة دائرية كبيرة داخلها درجات سلم تتجه لأسفل، اختفى (حسام) الآخر بلمح البصر ودخان أبيض يظهر عند أحد أركان القاعة ويتشكل مكانه (جعفر) بملابسه السوداء، لكن نظرته كانت أشرس هذه المرة وهو ينظر ناحيتي، اختفى من مكانه وظهر بجانبي فأجفلت مبتعدًا لكنه تخطَّاني وأكمل حركته ناحية (فرغلي) والبقية، تجمَّد (جعفر) في موضعه لثوانٍ وكأن قدمه مثبتة، نظر حوله ثم وجَّه عينيه باتجاه (عمر) الذي كان يردد كلماتٍ ما من تعاويذه.

هل الجن كبل حركة (جعفر)؟ لم أنتظر الإجابة لأن هناك ضوءًا أزرق خرج من جسد (جعفر) كأنه أشعة ضوئية ثم تحول إلى اللون الأصفر وأتت أصواتٌ من أركان القاعة تشبه الصراخ لكنني لم أرَ من يصرخ.. تحرر بعدها (جعفر) من القيد الخفي واختفى ليظهر أمام (عمر) وهو يمد يديه ناحيته، قبل أن تلمس يده جسد (عمر) ظهر (حسام) الآخر خلف (جعفر) وأمسكه لكن (جعفر) شعر به والتفت له بسرعة وأمسك به والأبخرة البيضاء تغلفهم وزيادة في عروض السيرك التي رأيتها اليوم سقط فمي دهشة، عيني لا تصدق أن (جعفر)

احتضن (حسام) الآخر وجرَّه صاعدًا إلى سقف القاعة حتى اخترقاها كالدخان.

أعتقد أن العرض انتهى مؤقتًا وعلينا أن نغادر القاعة قبل أن يعود المجنونان ثانية، دخل أصدقائي في الفتحة الدائرية وأنا أتبعهما على السلم والظلام يحيط بكل شيء حولي.

لو قتل (جعفر) (حسام) الآخر لن أموت لأنه هو مستقبلي، أما لو قتلت أنا فهو سيموت، من فرط قوة (جعفر) أشك أنه سيقتل، لكن على الجانب الآخر زاد إعجابي بنفسي المستقبلية التي تبدو القوة عليها، الحقيقة أن جسدي وعقلي غيرُ مؤهلين لهذه الأعمال المبهرة التي يفعلها (حسام) الآخر، ولن أتخيل أو أفكر بأنني سأصارع كالأبطال الخارقين في الأفلام الأمريكية.

سمعنا صوت (فرغلي) الذي يتقدمنا في الظلام وهو يقول:

- أنا لقيت باب بس مش عارف أفتحه، إيديكوا معايا.

أبطأت نزولي الدرجات كي لا أصطدم بمن يسبقني حتى ظهر ضوء من جراء فتح باب ما وظهر ضوء الشمس، خرجنا لنجد أنفسنا في فناء خارجي من المفترض أنه مُهمَل لأن به بعض الأثاث المحطم وهناك كلب أو اثنان، لكن الخازوق كان في اثنين من الجنود يقفان يدخنان غليون بعصا قصيرة، وجودهما هنا غير طبيعي فهما أشبه بطلاب المدرسة الهاربين

من الحصة لتدخين سيجارة في الحمام، أجفلا وداري كل منهما غليونه فصرخ فيهما (فرغلي):

- خيانة.. عايزيين يقتلوا الباشا.. اقفلوا أبواب القلعة.

ارتبك الجنديان وهما يلقيان يرفعان بنادقهما ويخرجان أكياسًا من أحزمتهما، لكن (فرغلي) عاد ليصرخ عليهم:

- نفذوا الأمر.. اللي يحاول يخرج من القلعة اقتلوه.

جرى الجنديان مبتعدين وأنا أقول لفرغلي هامسًا:

- هنخرج إزاي دلوقت؟

لم يرد علي وهو يجري باتجاه سور جانبي ونحن معه، توقف وهو يبحث في الأرض الترابية وجلس على ركبتيه يضرب على الأرض بجنون حتى وجد حلقة معدنية كبيرة جذبها بقوة فانفتحت بوابة حديدية صغيرة حشر نفسه فيها وهو يقول:

- دا باب هروب سري، أظن واضح.

لم يكن يحتاج للشرح لأننا سندخل لأي مكان هربًا مما ينتظرنا لو قبض علينا، وهذا الباب الأرضي لم يفضِ إلا إلى ممر عطن الرائحة مليء بالمياه الجوفية سرنا فيه لدقائق نحاول ألا نسقط في الظلام حتى وصلنا إلى سلم خشبي تسلقناه وخرجنا من بوابة معدنية أخرى.

صعدنا لنجد أننا نقف في منطقة مرتفعة عن الأرض، تحيط بنا الرمال والصخور وتطل على طريق ممهد نراه بأسفلنا تسير به بعض الحمير المحملة بأشياء لن أراها بسبب ارتفاعنا الشاهق.

- ماتقلقوش أنا عارف طريق من هنا ياخدنا على...

انقطعت جملته لأننا سمعنا صوتًا يأتي من مستوى أعلى منا، صوت صارخ ينادي بأقصى قوته ويرن صدى صوته حولنا قائلًا:

- حرس سلاح.. حرس سلاح عند باب الانكشارية.

رفعت رأسي لمصدر الصوت لأتطلع إلى نقطة بعيدة في أحد أجزاء السور الخارجي للقلعة، نقطة بها بناء مربع صغير كأبراج الحراسة الفردية، ويتواجد فيها فعلًا جندي يحمل بندقيته ويصوبها ناحيتنا، المسافة بيننا كبيرة جدًّا حتى إنني لا أراه إلا كنقطة، وهذا الجندي المسكين ببندقيته البدائية سيهدر طلقته الوحيدة ثم يعيد تعبئتها في فترة طويلة نكون قد هربنا بل وسافرنا عبر الزمن حتى.

أطلق الجندي طلقة الرصاص فتردد صداها وأنا أفكر جديًا في تلك اللحظة بأنه من المحتمل أن يصيب أحدنا، جاءتني هذه الفكرة وشيء ما يدفعني للخلف لأقع أرضًا على ظهري، تحياتي لمدرب هذا الجندي الذي جعله يقتنصني من كل هذه المسافة،

متى عرفت أنني أصبت؟ حسنًا لا يوجد ألم في أول ثلاث أو أربع ثوانٍ، ثم شعرت بألم يزيد تسارعه برقبتي، الطلقة من قوتها دفعتني للخلف لكني لم أتبين موضعها بجسدي لذلك حاولت النهوض.. وفشلت، لم تطاوعني أطرافي، أشعر بالضعف حتى أن تحريك جفن عيني يتطلب مجهودًا جبارًا.

الألم يزيد برقبتي وأحدهم يحملني، أعتقد أنه (عمر)، الألم يزداد وأشعر بأن قدرتي على تحمله تضعف، ثم ظلام دامس.

***

أحلام كثيرة تراودني لا أتذكر منها شيئًا سوى ألم في الرقبة أيقظني، فتحت عيني لأجد نفسي بفراش لم أتبين ملامحه بسبب الظلام الدامس، صرخت مناديًا على أي أحدٍ فخرج صوتي ضعيفًا واهنًا، ناديت مرة ثانية وثالثة حتى انفتح الباب ودخل (راضي) يحمل شمعة طلبت منه ماء فسحب دورقًا نحاسيًا من كومود بجانبي وأجلسني نصف جلسة وألم رقبتي يضغط على أعصابي لكنه في الحقيقة ألم يمكن تحمله هذه المرة، شربت الماء مستخدمًا يدي بشكل طبيعي ثم تحسست رقبتي لأجدها مغطاة بضمادات كبيرة في جانبي الأيمن، دخلت الرصاصة فوق الترقوة بقليل على الأرجح لأني أشعر بموضع الألم في هذا المكان، قلت له بوهن:

- بسرعة.. قولي إيه اللي حصل؟

- حد ضربك بالرصاص.

ابتسمت وأنا أرد:

- آه ما أنا عرفت، إيه اللي حصل بعديها.. ولّا عايزني أقولك أنا فين وأنا مين.

- بعد إصابتك هربنا من الحراس، (فرغلي) وصلنا لبيت من بيوته، مش طلع خبيث وكان باني تلات بيوت ومش معرف حد بيهم.

- مبروك يا سيدي.

- مفيش.. أدينا قاعدين فيه من ساعتها.

- خلاص كده؟ طب وإصابتي..

- آآآآه انت بتسأل عملنا معاك إيه، معلش أصل الموضوع بقاله فترة، عدى عليه يجي أسبوعين.

- وعملتوا إيه؟

- عالجناك.

- إنت بقيت بارد ليه كده يالا!! محسسني إني فرخة ملهاش لازمة كانت ماشية معاكم واتعورت.. ما تحكي أنا مش قادر أزعق فيك.

- طب ما إحنا عالجناك وخلاص.

- إنتوا شيلتوا الرصاصة بإيه؟

- لا دا إنت حظك كان بمب، الرصاص خرجت من الناحية التانية، الدكتور جه وفحصك.

- جبتوا منين دكتور؟

- بص يا صاحبي أنا قعدت هنا كتير وبطلت أندهش، الدكاترة هنا بالهبل، أهو حظك إن (فرغلي) جاب دكتور لسه راجع من بعثة لإيطاليا بنار الفرن، نضف جرحك وركبلك أدوية سابهالنا هنا نديك منها.. لإنت مش فاكر؟

- فاكر إيه ياد؟

- ما إنت كنت بتفوق كتير الأسبوعين اللي فاتوا، حقيقي كنت مدروخ ومرتين جاتلك حمى وكنت هتموت بس ساعات كنت بتسأل على حاجات، وساعات كنا بنعرف نأكّلك أي حاجة، بس الحاجة المقرفة إننا كنا بنغيرلك هدومك لما...

قاطعته بسرعة:

- مش عايز أعرف ماتكملش.

قال وهو يجلس على الفراش وما زال ممسكًا بالشمعة:

- إحنا صحوبيتنا انضربت في مقتل يا (حسام) خلاص،

شوفت اللي امينفعش تشوفه غير أمك، أو مراتك لو كنت أوبن مايندد.

- ما خلاص بقى ماتخنقنيش.. يعني محصلش حاجة الأيام اللي فاتت؟

- لا.. اتفقنا إن محدش فينا يتحرك من البيت إلا للضرورة القصوى، رجالة الوالي بيدوروا علينا، يمكن الوالي نفسه واللي معاه ناسيين اللي حصل بس مسرحية الهروب اللي عملناها دي خلتهم عايزين يوصلولنا.. حتى (عزام) خبى أهله في مكان أمين ورجع قاعد معانا من ساعتها لحد ما تنتهي المشكلة.

دخل الغرفة (فرغلي) يحمل مصباح جاز.. وهش وجهه بمجرد أن رآني وهو يقول:

- إنت صحيت ولّا لسه بتخطرف؟

- أظن إني فوقت خلاص.

نظر هو إلى (راضي) وقال:

- أمال انت ماسك شمعة ليه هاتحرق الأوضة يا أسطى.

تعبيرات (فرغلي) لا تناسب سنه ولا شاربه ولا لحيته الأنيقة، كما أنه عاد لاكتساب بعض الكلمات من (راضي) والتي كان قد نسيها طوال السنوات السابقة، ردَّ (راضي) بحرج:

- ما أنا كنت رايح بيت الراحة ما أعرفش إنه صحي.

- بيت راحة إيه؟ إنت بقيت تتكلم زيهم يا (راضي)؟

- اسكت مش أنا عملت (شطاف)، هو بسيط بس فظيع، هاتلاقيه في بيت الراحة هنا.

قال (فرغلي) بامتنان:

- والله أنعشت الواحد يا (راضي) بعد كل السنين دي.

- إيه يا جماعة؟

قلتها فنظروا لي بعيون متسائلة فقلت:

- أنا ملاحظ إن البال رايق والدنيا جميلة، هو خلاص كده هنفضل في البيت ده طول حياتنا؟

- لو خرجنا الشرطة هاتقفشنا، أو الأسوأ، (جعفر) يعرف مكانّا.

قالها (فرغلي) وهو يستند على جدار بجانبه و(راضي) يقول:

- الفترة اللي فاتت بعد تفكير قدرت أكوّن معلومات عامة عن اللي بيحصل تحب تعرفها؟

- بعد إذن سيادتك لو تحب.

قال (فرغلي) قبل أن ينصرف من الغرفة:

- أنا هاخليهم يحضروا أكل لينا كلنا.

الحقيقة إنني شعرت بالجوع بعد استيقاظي لكنني خجلت من ذِكر شعوري، أما (راضي) فأعاد ذكر كل ما حدث لنا من البداية حتى وصل إلى الفيديو الذي تركته لنا (صفاء) وظهرنا به نحن الاثنان معها

- فاكر يا (حسام) اليوم ده؟

- يوم إيه؟ أنا مش فاكر اننا كنا معاها في البيت أو باللبس ده.

- بس ده اللبس اللي إحنا سافرنا بيه للعصر اللي إحنا فيه دلوقت.

- أيوه يعني عايز تقول إيه؟

- عايز أقول إن ده لسه في المستقبل ومعناه إننا هنتحرك من هنا ونكون في بيت (أبو خطوة) اليوم اللي (صفاء) دخلته علشان تقضي ليلة هناك.

قال لي أن (صفاء) دخلت المنزل وحدث تداخل فيه بين الماضي والحاضر والمستقبل، فصفاء كانت جالسة وشاهدت أجزاء من المذبحة التي حدثت، كما كنا نحن في اليوم الذي دخلنا لهناك لتصوير حلقة البرنامج شاهدنا خيالات لصفاء جالسة تبكي وشاهدنا وقائع المذبحة، لم أترجم كلماته في عقلي في البداية لكنه أعطاني مثلًا بأن الغرفة التي أرقد فيها من

المفترض أن هناك أحداثًا مرت عليها أمس وأحداث ستمر عليها غدًا، على حسب كلماته فإن كل هذا الأحداث تحدث في نفس الوقت الآن، فلا وجود للحاضر أو الماضي أو المستقبل في الزمان والمكان، كل الأحداث تحدث في نفس الوقت، ومستحيل أن تظهر أحداث الماضي والحاضر بوضوح إلا لو كان الزمان ينهار نظريًا.

ولو تتبعنا (جعفر) وعلمنا أنه قام بتغيير في الزمن عندما جذر ابن كبير عائلة (السلاموني) فكان نتيجة هذا مذبحة داخل المنزل، من هنا تكون الزمن البديل للزمن الحقيقي، زمن تحدث فيه هذه الأحداث، وفي هذا الحدث يكون الزمن الجديد الذي نعيش فيه أقرب للانهيار لذلك حدث تداخل للأزمنة هذا اليوم.

- هاعمل نفسي فاهم اللخبطة دي بس بسط كلامك أكتر وحياة أمك.

عاد ليبسط لي أن (جعفر) عندما قام بتغيير ضخم في زمنه الأصلي انبثق عالم جديد وهو عالمنا بنفس شخصياتنا ولكن بتغيرات عليها بسبب اختلاف الأحداث التي أدت لنشأتنا، فحدث بسيط يمكن أن يغير معتقداتك. وأفكارك وبالتالي يغير طريقك في الحياة، فلو كان (راضي) مثلًا أستاذ موسيقى في عالم

(جعفر) الأصلي فهو هنا مهندس بسبب تغيير الأحداث التي قام بها (جعفر) عام 1993 وصنع المذبحة بالمنزل وهذا التغيُّر أثَّر على كل ما حوله وجعل (راضي) يتجه لدراسة الهندسة ومن ثم تغير حياته، وإن كل من تغيرت حياته تأتي له ذكريات من زمنه الأصلي كما كانت تأتي لراضي أحلام عن (دعاء) لأنه ارتبط بها في زمنه الأصلي برغم أنه لم يرَها هنا من قبل.

وعندما أراد (جعفر) أن يجعل هذا الزمن الفرعي مستديم وكامل أخذ بتغيير أحداث في زمنه الأصلي مثل إرسال نسخته التي تعيش هنا إلى الماضي البعيد وإرسال (فرغلي) لزمن تاريخي أقدم ليحدث تغيراتٍ تصنع تاريخًا يطيل عمر الزمن الفرعي.

- معلش أنا عمال أعديلك، بس إنت تقصد إننا مش حقيقيين؟

- والله ما أعرف، دي كلها افتراضات ونظريات علمية عليها حبة خيال علشان تفسرها وماتنساش إن فيه نظريات علمية عليها إثبات رياضي إن الذرات عندها إدراك وتقدر تتغير براحتها.

- وأنا مالي بالذرات دلوقت متتغير زي ما هي عايزة.

- يا حاج (حسام) أنا بيسطهالك، تخيل الذرات اللي بتكون الكون اللي حوالينا ممكن تتغير وتكون كون تاني.

- طب والكون الأولاني راح فين؟

- هايفضل موجود، انت بس لو أدركت إن فيه كون تاني هاتشوفه، والظاهر والله أعلم دا اللي بتعمله الغرف اللي تحت بيت (أبوخطوة)، بتحول إدراك (جعفر) أو الحراس اللي كانوا بيحرسوا المداخل لعالم حقيقي متكامل، كأنها بتنفذ ليك أمنياتك.

دخل (عمر) علينا حاملًا مصباح جاز وهو يقول مبتسمًا:

- (فرغلي) صحاني من النوم وبشرني إنك بقيت كويس.

- إزيك يا (عمر)؟ إنتوا كلكم ماشيين شايلين لمبة جاز.

- أصل البيت هنا فقير شوية مفيهوش البتاعة اللي بتتعلق في السقف دي.. اسمها إيه يا (راضي)؟

- قنديل أم هاشم.

جلس على طرف فراشي وقال:

- طبعًا (راضي) مسك ودنك وبيحكيلك على نظرياته العبقرية.

- هو حكالك؟

- دا ماسابش حد إلا لما حكى له، دا بيقعد في الحمام يكلم نفسه في الأفكار دي.

- ما أنا بسلي نفسي.

قلت أنا:

- هو لحد دلوقت مقالش حاجة مفيدة.

- سمعته لما بيقول إن (حسام) اللي هو إنت في المستقبل بيستخدم المدخل اللي في (دهشور)؟

نظرت لراضي الذي صرخ معترضًا:

- إنتوا كلكم اتعميتم، دا هو نسخة من (جعفر)، الحروق والبقع اللي في جسمهم اللي بتظهر وتختفي شبه سرطان الجلد في آخر مرحلة، خالي الله يرحمه مات بيه وأنا صغير، جسم الاتنين بيتعرض لنوع من الإشعاع النووي أو مجال كهرومغناطيسي عالي لفترات طويلة أوي، يمكن علشان بيسافروا في الزمن فبيتعرَّضوا لأضعاف أضعاف اللي يتعرض ليه شخص عادي، لكن الاتنين بيتعرضوا لمصدر طاقة، (جعفر) في بيت (أبو خطوة)، والمكان التاني المتاح حسب كلام (عزام) هو المدخل التاني اللي في (دهشور).

- أمال ليه طلب من (جابر) إني أروح وأبني غرفة في بيت (فرغلي)، الأدوات اللي ادهالي والمفروض أبني بيها الغرفة (جابر) أخدها من مقبرة (دهشور) على حسب كلام (حسام) نفسه.

- أكيد (حسام) هو كمان بيغير في الزمن اللي إحنا فيه دلوقت بس من غير ما يخلي حد يسافر معاه، يمكن فيه حاجة في دماغه إحنا مش فاهمنها.

تنحنحت أنا وقلت بصوت خافت:

- (راضي) بيتكلم صح.. وإحنا قدام (محمد علي باشا) قالّي إنه مش هايقدر يسافر في الزمن إلا لما يكون في (دهشور).

ارتفع حاجب (عمر) وهو ينظر لي بينما شهق (راضي) وأشار ناحيتي وقال:

- كلامي صح، شُفت، (حسام) كان بيحركنا زي قطع الشطرنج، نفس اللي بيعملوا (جعفر)، والاتنين في صراع مع بعض في كل الأزمنة كأن كل واحد فيهم عنده رؤية مختلفة للأحداث اللي بتحصل والتاني معارضه وعايز ينفذ رؤيته.

يمكنني بسهولة لو رأيت هذا الحوار يتم بين ثلاثة أشخاص في غرفة أن أتوقع أن تكون تلك الغرفة في مستشفى المجانين لا غرفة نوم عادية، قلت لهم مبتسمًا:

- عارفين أنا نفسي في إيه؟ نفسي أدور على فيشة الكهربا بتاعت كل حاجة وأشيلها وأرتاح.

- أنا بكلمك عن نظريات علمية وإنت بتلخص القصة في

فيشة هاتشدها من الكوبس.. إيه هو تلفزيون هاتطفيه وتدخل تنام.

هرش (عمر) في ذقنه وهو يقول مفكرًا:

- لو عرفت أروح بيت جدي اللي سيبنا فيه الشنط وأخد الحاجة وأبني الغرفة ممكن نتأكد من نظرية (راضي).

قلت أنا:

- طبعًا البيت دلوقت عليه حراسة.

- لا الحراسة مش مشكلة، أي جني ممكن يخليني أدخل البيت.

ردَّ (راضي) بدهشة:

- إنت مش قولتلي إن الجن اللي معاك اتحرقوا وماتوا بسبب (جعفر) يوم ما كنا مع الباشا.

- آه بس ممكن أعمل عهد عادي مع قبيلة جديدة.

قلت أنا:

- طب ما تعمل كده.

- أنا خوفي من (جعفر)، لو عرف مكاني ممكن يوصلكم هنا، واللي فهمته من اللي شُفته منه إنه بيصطادنا واحد ورا التاني.

من منطقة بعيدة في عقلي لمعت فكرة ضعيفة غير منطقية لكني لم أصرِّح بها بل كل ما فعلته أنني قلت:

- (عزام) موجود في البيت دلوقت؟

- آه بس نايم، تحب نصحيه؟

- لا خليه لبكرة لما يصحى براحته.

- تلاقي (فرغلي) صحاه علشان يشوفك، هاقوم أندهولك.

قالها (راضي) وهو ينهض لكني أوقفته وقلت:

- أنا هابقى أكلمه بعدين.

***

مرَّ يومان ولم أحدث (عزام) بما أريد، ربما لأن الفكرة ما زالت تختمر بذهني، في هذا الوقت اكتشفت أنني قادر بشكل جيد على تحريك يدي اليمنى حتى ولو كانت هناك آلام في رقبتي وجزء من كتفي، أعتقد أن الأدوية التي أتناولها تعطي مفعولًا جيدًا برغم أنها أدوية سائلة تم تركيبها بناء على وصفة، أي أن احتمالات الخطأ عالية لكنها كانت أكثر من جيدة، خاصة ذلك المهدئ أو المخدر الذي يخفي الألم عني دائمًا، لم أكن أتناوله بانتظام منذ استعدت وعيي لأني لا أريد الإدمان عليه.

سألت في مرة (عمر) لماذا لا يذهب إلى هذا المكان بدهشور ويحاول تشغيله فربما نجح واستطاع أن يكتسب نفس قدرات (جعفر)، لكنه أخبرني بأن لو (حسام) الآخر فعلًا يستخدم هذا المكان كان أولى به أن يستطيع مهاجمة (جعفر) وتوقيفه عن تغيير الزمن.. تزاحمت الأفكار في رأسي بشدة، (عمر) هو الآخر ينوي أخذ مكان (جعفر) عندما سيدخل قبله للمنزل ويعدِّل فيه، ويعتقد أنه سيستطيع حل كل المشاكل، و(حسام) الآخر هو أيضًا يتحرك في الزمن مغيِّرًا من الأحداث، لكن ما حدث بالأيام السابقة لم يخطط له (حسام) وهذا واضح، فما الذي ستنتهي به الأمور بالأيام القادمة؟

اليوم اختمرت الفكرة برأسي واقترحتها عليهم ونحن نجلس على الطبلية نتناول طعام الغداء.

- إيه رأيكم لو نقابل (حسام) التاني ونخليه يكشفلنا هو عايز إيه ونساعد بعض.

توقف (راضي) عن تناول قطعة اللحم الحمراء وابتلع ما بفمه من طعام ثم قال:

- وده نوصله إزاي يعني؟ نتصل على موبايله.

ضحك (عزام) وفهمت أن (راضي) أو (عمر) حكى له عن بعض الاختراعات في عصرنا، بينما قال (عمر):

- أنا عارف هو عايز يعمل إيه، إنت عايزنا نروح (دهشور) ونقابله هناك.

- مش يمكن لو روحناله مانلاقهوش هناك، يكون الراجل مسافر في الزمن ولّا حاجة.

قالها (راضي) وقهقة ضاحكًا بسماجة بينما أنا أقول:

- أستاذ (عزام)، إنت تعرف بالتحديد مكان المقبرة؟

- يا ابني أنا مش أستاذ ماتتعبنيش، وآه أعرف مكان المدخل التاني اللي في (دهشور)، بس هي مش مقبرة دي.

- ماشي ماشي مش مهم مقبرة ولّا مدخل، لكن إيه رأيك لو تاخدنا هناك ونحاول نخش لحسام إذا كان هناك فعلًا.

قلت عبارتي والحماسة تتملكني فقال (فرغلي):

- ولو ماوصلناش لحاجة ممكن نكشف نفسنا و(جعفر) يوصلنا.

- لو اتكلمنا بالعقل فشكل (جعفر) و(حسام) اللي من المستقبل ده بيعرفوا يسافروا في الزمن من خلال الأوضة لكن لو بعدوا عنها بيكونوا أضعف، ممكن يتنقلوا من مكان لمكان أو يختفوا، لكن مابيعرفوش أماكنًا إلا بشكل عادي، يعني احتمال إنهم يوصلولنا قليل، دا بالعكس عساكر الوالي أقرب لينا منهم.

كان قائل العبارة هو (عمر) والذي لم ينهِ كلامه بل أكمل:

- طالما كده كدة هنخرج يبقى أنا هاروح بيت جدي وآخد الشنط من هناك والباقي يطلعوا على (دهشور).

قلت أنا:

- بس إنت لو دخلت البيت أكيد (جعفر) هايحس بيك، أكيد إنت ملاحظ حاجة زي كده من كل اللي شُفناه.

- هي محاولة ويمكن تنجح.

- بس دي محاولة انتحارية.

ردَّ عليَّ مبتسمًا بسخرية:

- ولو إنت رحت لحسام اللي من المستقبل واكتشفت إنه مخبي لينا مفاجأة ويطلع أوسخ من (جعفر) نفسه، كله انتحار، أنا محتاج بس أبني الأوضة وأعمل التجربة دي، ولو أنا فشلت ممكن إنتوا تنجحوا.

- إنت مصدق إزاي موضوع الأوضة دي، المفروض تشك في أي حاجة حواليك دلوقت.

صمت (عمر) وتراجع بظهره للوراء ليبتعد عن الطبلية وقال بنبرات بطيئة كأنه يفكر فيما يقول:

- الأيام اللي فاتت فكرت كتير في اللي إحنا فيه، (جعفر)

عنده دافع يعمل اللي بيعمله، بيدافع عن البنت اللي بيحبها، حتى لو الدافع بتاعه تافه لكنه مصمم عليه ومستعد يدمر أي حد يقف في طريقه، حتى لو غير الزمن كله، و(حسام) اللي من المستقبل هو كمان عنده دافع إحنا مش عارفينه، دافع إنه يصارع (جعفر) وإنه يتحرك في الزمن بتاعنا ويشكله من جديد، إحنا بقى إيه دوافعنا ؟؟ (فرغلي) و(حسام) و(راضي) و(أحمد) و(عمرو) وأنا.. إحنا كان بيتلعب بحياتنا من غير ما حد ياخد رأينا، لقينا نفسنا في وسط خناقة كبيرة وبنتسحب لصراع مش متكافئ، قطع دومينو بيحطونا مكان ما يحبوا، وكل ما الدور يقفل يهدوه ويبدأوا دور جديد، من اللي فهمته إننا عايشيين في دايرة بسببهم، وكل ما تبوظ نرجع من الأول، إحنا دافعنا هو يأسنا، بنجري زي الفيران في متاهة وحد بيراقبنا من فوق، مجرد فيران تجارب، لازم نقلب الترابيزة عليهم، وناخد إحنا زمام المبادرة، كان عندك حق يا (حسام) أنا مش واثق في الكلام اللي اتقالي، مش هابني غرفة، أنا هاستخدم الأصل، هانزل تحت البيت وأكون حارس زي جدودي، كنت خايف لو استخدمت البيت في الزمن ده يأثر علينا كلنا، لكن لازم أعمل حاجة، هانزل وأطلع في الزمن لحد 2005 وأمنع (جعفر) يدخل البيت.

- بس كده إنت بتخاطر إنك تعمل زمن جديد.

- أنا عارف هاعمل إيه، (جابر) حكالي على تفاصيل اللي حصل في البيت مع (جعفر) في 2005، وأقدر أبعده من غير ما أضره.

قال (راضي):

- لو الهري اللي إحنا فيه ده صح فمعناه إن الزمن اللي عايشيين فيه ممكن ينهار لو غلط إنت كمان.

ابتسم (عمر) وهو يقول:

- أنا مش زي (جعفر) وكل اللي هاعمله إني هاصلح.

لم ينظر (عزام) لأحد واكتفى بالنظر لطعامه قائلًا:

- ومين قالك إني هاخليك تنزل وأسيبك تتحرك في الوقت زي ما كيفك يجيبك.

- هاتخليني أعمل كده، لأني هاصلح حياتك، وهخلي (فرغلي) يكون في زمنه الحقيقي.

لم يرفع (عزام) عينيه عن طبقه وكأنه سلم بالأمر الواقع وهذا يدهشني، هل تغيرت قناعاته في الأسبوعين الماضيين؟ أم أنه أحس بالضياع ولم يعد يثق بالقوانين الصارمة التي علمها

له أجداده!!، الطريق إلى جهنم مفروش بالنوايا الحسنة، عبارة لم أشعر بأهميتها إلا هذه اللحظة، هل كان (جعفر) يفكر بنفس طريقة (عمر) عندما بدأ كل شيء؟ هل اعتقد فعلًا أنه يحمي الجميع ويعيد الأمور لنصابها؟ هل ما زال يفكر بنفس الطريقة حتى هذه اللحظة؟

- السيد (عزام) هايدلني على المكان بتاع (دهشور) وهاروحه لوحدي.

قلتها أنا بعد نضج الفكرة في ذهني فضرب (راضي) بيده على الطبلية قائلًا:

- يا فتاح يا عليم يا رزاق يا كريم، إنت مش لسه قايل هنروح كلنا!!!

- (حسام) التاني مهتم بحياتي أنا وده طبيعي عشان خايف على نفسه، بس زي ما قال (عمر)، إحنا منعرفش إيه اللي في دماغه، مضمنش حد يروح معايا منكم ويحصله حاجة.

- أنا جاي معاك وش علشان نخلص وماتحاولش.

قالها (راضي) فتنحنح (فرغلي) محرجًا وهو يقول:

- هو أنا ليه حاسس إنكم بتقسموا فريقين كورة وأنا ابن البطة السودة اللي محدش عايز ياخده فيكم.

- مين قال، دا فيه مهمة كبيرة أوي ليك، تقدر تجيب حاجة من قصرك؟ ولّا هتتقفش؟

- أقدر طبعًا، عندي وسيلة أوصل بيها لسنقر وهو يعرف مداخل ومخارج سرية للقصر.

- ماتقولش هتتواصل معاه بالحمام الزاجل.

- الله ينور عليك.

- طب أنا عايز منك تجيبلي اللبس بتاعي اللي أنا جيتلك بيه أنا و(راضي) و(عمر).

- سهلة، هايكون عندك بعد كام ساعة ماتحملش هم.

قال (راضي) بسرعة:

- وماتنساش اللبس بتاعي لأني رايح معاه.

- هاجيب كل اللبس علشان نخلص، بس فيه سبب؟

- بصراحة مش طايق الجلاليب.

- كداب بس هامشي وراك للآخر، وماتنساش إنك هتلبس اللبس بتاعك ده تحت الهدوم علشان ماتلفتش النظر.

- وهنسيب (عمر) يلبس لوحده في بيت (أبو خطوة)؟

نهض (عمر) وهو يقول:

- هاقدر أتعامل لوحدي.

ردَّ (فرغلي) بسرعة:

- إنت هاتعمل نفسك ربع في رغيف، أنا هاجي معاك علشان أوصلك من غير ما حد يشك فيك.

نهضت أنا الآخر وسرت باتجاه المطبخ حيث الخادمان اللذان يساعدان (فرغلي)، فمعهما إبريق المياه الذي سأغسل فيه يده، سبقني (راضي) جريًا وأبطأ خطاه عندما مرَّ بجانبي وقال همسًا:

- إنت عايزنا نلبس لبسنا اللي ظهرنا فيه في الكاميرا مع (صفاء)، عايز تحقق المستقبل بالظبط، شكل (حسام) التاني ده هاينقلنا لليوم ده.

نظرت له ولم أنطق بكلمة وأنا أراجع ما يدور بعقلي وأستعد نفسيًا لما سيحدث.

***

جاء الليل وبدأت الترتيبات، كان (فرغلي) قد صعد لسطح المنزل وأطلق حمامة زاجلة لمنزل (سنقر) بها طلب مقابلة في موضع يعرفه الاثنان بمنيل الروضة، ولأن (فرغلي) _كما شرح لي_ يمتلك حمامًا زاجلًا يعرف الطريق لمنزل (سنقر) ولا يمتلك (سنقر) حمامًا يعرف طريق هذا المنزل فعلى (فرغلي) الذهاب للمكان والانتظار على أمل استلام الرسالة، لذا فقد

غير (فرغلي) ملابسه الثمينة بملابس أكثر فقرًا، وقام بتغيير شكله بآخر طريقة توقعتها؛ حلق لحيته بكل بساطة، ولكنه ترك الشارب الضخم المبروم الطرفين فأصبح وجهه مضحكًا بعدما زالت الهيبة، كلنا ضحكنا على تغير وجهه حتى (عزام) الذي كتم ضحكته في البداية ثم انفجر بعدها بقوة وجسده يرتج، حتى أخبره (فرغلي) بأن عليه هو الآخر حلاقة شاربه ولحيته.

رفض (عزام) بجنون وأقسم بحياته على ألا يفعل حتى ولو قبض عليه وأعدم.. جلسنا ننتظر والساعات تمر والليل قد حان ولم يعد (فرغلي)، بعد سدول الليل بخمس ساعات عاد (فرغلي) وهو يحمل صندوقًا كبيرًا وبضعة أكياس من القماش مغلقة، قلت له:

- تعرف إن (سنقر) ده لو شخصية في فيلم مصري قديم كان خانك وبلغ عنك.

- طب احمد ربنا إنه مشافش الأفلام دي، الراجل خاطر بحياته ودخل قصري وهو تحت الحراسة وجابلي الهدوم وغدارات وبارود ودهب.

- إيه كل ده يا عم هي حرب!

- أنا بورّيك بس إنه لو كان اتقفش بالحاجات دي كان الوالي قعده على الخازوق.

أعطانا الملابس والتي تم غسلها كما يبدو يوم وصولنا لقصره، فارتديت ملابسي وكذا فعل (راضي)، ثم أعطانا (عزام) ملابس الخادمان وشدد على حَلْق لحانا وشواربنا حتى ولو لم تكن طويلة.

- إنت عايز شكلهم يبان إنهم مماليك تبعك يعني؟

قالها (فرغلي) وهو يتأمل مظهرنا بعد الحلاقة و(عزام) يهز رأسه بالموافقة ويقول:

- إوعى حد فيكم يتكلم طول الطريق مع أي نفر، طريقتكم هاتفضحكم.

قال (راضي):

- هو إحنا خايفين منهم كده إزاي؟ يعني هيعرفونا من أوصافنا مثلًا؟

- لو حد من الشرطة أو الجنود أو البصاصين شك فيك وكلمك هياخدوكوا من غير كلام ويبقوا يدوروا وراكم على رواقة، ماتستهونش باللي حصل في القلعة، البلد كلها واقفة على رجل، سيبوا نفسكم للمعلم (عزام) وهو يكفيكم شر

الطريق، أما (جعفر) لو وصلكم فادعوا ربنا إن (حسام) التاني يلحقكم زي المرة اللي فاتت.

أخذني (فرغلي) جانبًا وحدثني بصوت خافت قائلًا:

- المفترض إنكم رايحين تقنعوا (حسام) لو لقيتوه بإنه ينضم لينا وبدل ما يحركنا نشترك إحنا معاه، بس كلنا عارفين إن مش ده اللي بالك، قلبي حاسس إننا مش هنتقابل تاني هنا في الزمن ده.

ابتلع ريقه وهو ينظر حوله ويقول:

- ويمكن (عمر) هو كمان عارف ده وبيشتريلكم وقت بإنه يشغل (جعفر)، أنا هكون معاه وأتمنى حد فينا ينجح.

- طبعًا انت خايف لكن مش هتقول كده.

ابتسم بأريحية وعلا صوته بشكل طبيعي وهو يقول:

- لا خلاص مش خايف من حاجة، حياتي خلصت هنا ووصلت لنهايتها، ما أعرفش شكل النهاية لكن متأكد إني هارتاح مع أي نهاية.

قفزت بذهني كلمة الفشل فقلت:

- لو أنا فشلت في اللي أنا عايزه وإنتوا مُتّوا في بيت (أبو خطوة) تفتكر هايحصل إيه؟

- مفيش، هايبدأوا من جديد ويمكن شخصياتنا الجديدة تحاول تعمل اللي إحنا بنعمله ده، ويمكن إحنا مرينا بالحوار ده قبل كده ونسينا وبدأنا تاني.

- كنت بتقول إن دي النهاية.. تفتكر هاتبقى نهاية سعيدة زي بتاعة الأفلام؟

- ما فيه أفلام نهايتها سودا يا جدع.. تنتهي بأي طريقة المهم ماتبقاش نهاية مؤلمة.

قالها واحتضنني وهو يقول:

- كان نفسي أقلش وأنا بقول الكلمتين اللي فاتوا بس منعت نفسي.

- مش عارف بس حسيتك بتتكلم زي (عادل إمام) في فيلم (سلام يا صاحبي).

اتسعت عيناه وهو يبعدني عنه ويقول:

- إنت عرفت منين إني كنت بفكر في الفيلم ده.

يخيل لي أنه يحاول استعادة خفة دمه في المزاح لكنه يفشل، الجميع يشعر بشيءٍ قادمٍ، لكننا لا نعلم ماهيته.. عدنا لهم وتصافح الجميع بحرارة زائدة كأنها النهاية فعلًا.

- لما تدخل الأوضة الأخيرة يا (عمر) سيب نفسك

وماتقاومش، ولما تحس إن جسمك بقى خفيف استخدم الخبيئة.

قالها (عزام) وهو يضع يده على كتف (عمر) الذي هز رأسه متفهمًا وقال:

- ماتقلقش عليا.

- ولو ماكانش لينا نصيب نتقابل قول لولادك إن جدهم الكبير بيسلم عليكوا.

- يوصل يا حاج.

قالها (عمر) ضاحكًا.. لطالما أبهرني الإيمان، تثق في شيء ما حتى ولو لم تَرَه، بل وتتحرك في طريقك على أساس هذا الإيمان، جميعهم مؤمنون بأنهم سيحدثون تغييرًا، لكن هل يا ترى حدث هذا المشهد من قبل وفشلنا فعلًا ونحن نعيده بحذافيره؟؟ ربما حان الوقت لاختبار الإيمان.

***

الفصل النهائي

بأبسط الطرق

1836

خرج (عمر) وفرغلي قبلنا من المنزل ليذهبا بطريقهما، أما (عزام) فقد غيَّر قليلًا في هيئته وقام بتعمير الغدارة بطلقة احتياطية ودسها بين ملابسه بالإضافة إلى خنجره الصغير، ثم اطمأن على ملابسنا وأعاد تعليماته ثانية، بالطبع لم أنسَ أن أشرب جرعة كبيرة من الدواء المخدر كي يقتل ألم رقبتي وكتفي ثم غادرنا وهو يتقدمنا.

المنزل الذي غادرناه كان في منطقة (بركة الحبش)، أعتقد أنها اختفت في عصري ولم أعلم كيف أصبح هذا المكان في الألفية الثانية، لكنها امتلأت بالأراضي الزراعية والبساتين وكان لها قرب من النيل.

- طريقنا هايكون إزاي؟

قالها (راضي) ونحن نمشي الهوينى بجانب (عزام) الذي رد ببساطة:

- لا مش بعيد، هنطلع على الجيزة مشي ومن هناك هنأجر عربية كارو تاخدنا للبدرشين ونكمل إحنا بعدها لوحدنا.

- طب ما ناخد عربية كارو من هنا؟

- العربيات بتتفتش أكتر من البني آدمين، ممكن حد يوقفنا يفتشنا طبعًا بس الاحتمال أقل.

- والله عمار يا مصر، ربنا ما يقطعلنا عادة.

قالها (راضي) فسأله (عزام) عما يقصد لكنه قال إنه تذكَّر شيئًا غير مهم.

السير ليلًا كان أفضل فحركة الناس قليلة ونادرًا ما نظر إلينا أي شخص، المسافة القليلة التي تكلم عنها (عزام) كان يقصد أنها في حدود الساعتين سيرًا على الأقدام وهذا تقديري وربما كان أزيد، قدمي أنا و(راضي) آلمتنا بشكل لا يوصف حتى إنني جلست على جانب الطريق مرتين لأرتاح قليلًا وفي النهاية وصلنا لدكان مغلق بالجيزة نادى (عزام) على صاحبه الذي كان يقطن أعلاه، نزل الرجل وعرفت أنه يعمل بالاتفاق لمشاوير محددة، سائق أجرة أو تاكسي إن وصفت لك عمله الآن لكن (عزام) يناديه بالعربجي وهي ليست سُبَّة بل وصف لعمله.

أخرج العربجي عربة الكارو من الدكان وربطها بحماره، هذه هي وسيلة الركوب الوحيدة في هذا العصر التي جربتها في زمني وأنا في عمر العشر سنوات عندما كنت بمصيف في (جمصة) قبل أن يعتبره البعض سبة هو الآخر ككلمة عربجي.

ذهب بنا العربجي إلى (البدرشين) ومنها لدهشور حتى وصلنا لأطرافها السكنية والزراعية وامتدت رمال الصحراء أمامنا إلى ما لا نهاية وضوء القمر يصبغها بلون مقبض كئيب، رفض العربجي الدخول في الصحراء وهذا حقه فنحن تخطينا منتصف الليل، نقده (عزام) بضعة نقود معدنية واتجه يسبقنا إلى الصحراء صامتًا وأقدامنا تغرس في الرمال لأكثر من ساعة حتى وصلنا إلى شيء ضخم يلقي القمر عليه بظلاله فيظهر ظل هذا الشيء مخيفًا.

- دا الهرم الأحمر.

قالها (عزام) ثم أكمل:

- إنتوا عندكوا خطة تنزلوا بيها لتحت؟

- تحت فين ولا مؤاخذة؟

قالها (راضي) فرد (عزام):

- المدخل مدفون تحت الأرض ولو (حسام) تحت هتخشوا ليه إزاي؟

قال (راضي):

- ما هو لو دخل قبلينا المكان يبقى أكيد حفر وفيه طريق نخشله عادي يعني.

توقف (عزام) عن السير وقال لائمًا:

- وأنا اللي قُلت عليك واد حدِق وابن بلد وبتفهم، ما هو (حسام) اللي إحنا رايحنله هو صاحبك في المستقبل، وأكيد لو دخل هناك يبقى عمل كده في المستقبل.

- آه والله غلبتني يا عم (عزام)، طب هنعمل إيه؟

- يا ابني أنا اللي بسأل.

- خلاص يبقى هننادي عليه.

ابتسم (عزام) وقال:

- ولو ماردش؟

- أنا قتيله هنا، مش هاروح كل المسافة دي تاني.

ضحك (عزام) بينما قلت أنا:

- خلي عندك إيمان.

- ونعم بالله.

ربما كانت عبارتي هي نوع من جبر الخواطر في الكثير من مواقفنا الحياتية، لكني قصدتها بالفعل، فها أنا الآن أسير في

طريقي إلى الإيمان وأتخيل أن الكوميديا الحقيقية لو كان ذهابنا إلى هذا المكان تم تدبيره لنا لنسير إلى قدرنا معتقدين أنه اختيارنا، أعتقد أن تلك الرحلة يتراقص فيها الشك والإيمان على نفس الأرض وإن اخترت الإيمان فقد اخترته أملًا في النجاة لا ثقة فيه.

بعد فترة من السير لم أحسب وقتها توقف (عزام) عند منطقة أقرب ما تكون إلى الصخور تحيطها الرمال.

- المكان هنا.

نظرنا لبعضنا البعض ولم يتحدث أحد كأن كلًا منا ينتظر اقتراحًا من الآخر.

- طب هنعمل إيه؟

قالها (راضي) فقلت أنا:

- ننادي عليه.

- طب ما تنادي، ولّا مكسوف حد يسمعنا يقول مين الناس الحمير اللي بينادوا في وسط الصـ...

لم يكمل عبارته وهو ينظر خلف ظهري ويشير بإصبعه لهناك، التفت لأرى البخار الأبيض المميز لظهور (جعفر) أو (حسام) الآخر، عدا أن من ظهر داخل البخار هو (حسام)

الآخر والدهشة تظهر على ملامحه المكتملة والتي لم تظهر بها الحروق كثيرًا.

- كنت عايز أسألك سؤال بس دلوقت عرفت إجابته.

قلتها فلم يتكلم، أكملت أنا قائلًا:

- كنت عايز أعرف إنت مستنينا نجيلك ولّا لأ، بس شكلك متفاجئ.

حرك شفتيه وقال ببرودٍ:

- جايين ليه؟

ردَّ (راضي) بسرعة:

- عايزينك تكون معانا.

- لا.

من قال لا هو أنا، حتى إن (راضي) و(عزام) نظرا لي باستنكار فأكملت عبارتي:

- أنا عايز أكون معاك تحت علشان أقولك على حاجة.

لم يرد لفترة طويلة وهو ينظر لي فقلت أنا:

- أنا مش ناوي على غدر وإنت أقوى مني بمراحل وتعرف تدافع عن نفسك لو أنا ناوي آذيك.

قال بعد فترة صمت ثانية:

- إنت عايز إيه؟

- مش هتكلم إلا وأنا وإنت لوحدنا.

فكرة محادثة صورة مني شيء جنوني ولكني كنت قد وصلت لحالة من السلام النفسي جعلتني أتقبل كل شيء في الدنيا، أما هو فنظر لراضي و(عزام) وقال:

- بس إنت بتحب (راضي) وبتثق فيه وبتأمنه على كل أسرارك، ليه مش عايزه يسمعك المرة دي.

- مابحبش حد يسمعني وأنا بتكلم مع نفسي.. أصل شكلي بيبقى مجنون.

ابتسم هو والبخار يزداد من حوله ويغطي جسده و(راضي) ينعتني بالغبي إن فكرت على النزول وحدي، البخار يحيط بجسدي أيضًا ونفس الأحاسيس التي أحسست بها و(جعفر) يسحبني لتحت منزل (أبو خطوة) أشعر بها الآن، ألم الرأس الذي يرتفع فجأة بقوة وينخفض فجأة، النار الحارقة بجسدي، شعور الهبوط من الأعلى وسَحْب روحي للأسفل، الاصطدام بالأرض لكن هذه المرة اصطدم ظهري بالأرض، زالت كل الآلام ماعدا ألم رقبتي وأنا أنهض وأشعر بدفء المكان القوي وعرقي يغمرني ويحرق جرح رقبتي.

نهضت سريعًا ونظرت حولي للمكان الذي هو قريب من التصميم في منزل (أبو خطوة) ولكنه لا يشبهه بالكلية، لم أجد حجرًا أسود هنا في موضع ظاهر لكن الكرات البيضاء المضيئة موجودة على الجدران، رسوم لشخص مجنح وكلمات بجانبه بالهيروغليفية.

- المرسوم ده هو حارس المدخل.

قالها هو فابتسمت وأنا أزيح العرق عن فمي وقلت:

- طبعًا هو مرسوم بأجنحة علشان إنتوا بتطيروا.

لم يبتسم فالسماجة طبع لصيق بي، قلت له:

- إنت مستقبلي صح؟

حرَّك جزءًا من ياقة القميص الذي يرتديه وظهر جرح على رقبته في موضع الرصاصة التي تلقيتها وقال:

- أنا مستقبلك لكن أي حاجة بتحصلك بتوصلي.

- إنت مخطط إني أنضرب بالرصاص؟

جلس هو على الأرض بأريحية لا تناسب أجواء الموقف، ولاحظت أن الحروق عادت لتظهر بوجهه ثانية وهو يتكلم:

- كل اللي حصلك من ساعة ما قابلت (فرغلي) مكنتش مخططله، (أحمد) و(عمرو) كانوا في الخطة.

- ماتوا؟

- (جعفر) رجع بالزمن لما شاف إنه غلط لما بعتك تقابل (فرغلي)، وحب يمسح الغلط بإنه يقتل كل اللي حواليك وبعديها يقتلك.

- قتلهم إزاي؟

- هو مش قتلهم قتلهم، تقدر تقول إنه حبسهم في نقطة من الزمن عاشوا فيها مسجونين وسنهم بيكبر لحد قبل ما يموتوا كان بيسبهم يطلعوا من البيت، وده كان مصير (عبد الرحمن) أبو (صفاء).

- والباقي مصيرهم إيه؟

استند هو على يديه ونظر بعيدًا عني وقال ببرود كأنه يحكي قصة مملة:

- (عمر أبو خطوة) دفنه حي بعد خناقة طويلة بينهم، بس دا كان هايحصل بعد سنة من دلوقت لما يحاول يبني أوضة تشبه المكان اللي إحنا فيه جوه بيت (فرغلي) وبمساعدته، وإنت كنت هاتتعلم على إيد (عزام) كام سنة وتيجي تفتح المكان هنا وتبقى حارس من حُرَّاس المدخل علشان تحاول تغير اللي حصل وتنقذ أصحابك

جلست أنا أيضًا على الأرض محاولًا الاسترخاء وتقبل ما أسمعه وقلت:

- و (راضي) هيموت إزاي؟

نظر لي نظرة بلا معنى، ربما كان يهنئني على استنتاجي وقال:

- بعد ما تشغل المكان هنا هتاخده وتسافر بيه على سنة 2007، هو اقترح عليك إن فيه تداخل في الأبعاد السنة دي وبالتحديد في اليوم اللي اللي بتدخل فيه (صفاء) البيت أول مرة وحدها، كان معتقد إنكم هتعدلوا في المذبحة وتخرجوا (صفاء) من البيت، لكن (جعفر) هايتتبعك ويقدر ياخد (راضي) ويعمل فيه زي اللي عمله مع (أحمد) و(عمرو).. هيموت بالشيخوخة والناس هتلاقي جثته قدام البيت سنة 1998.

- وبعديها أنا هبقى زي (جعفر)، هتحرك في الزمن وأعمل تجاربي مش كده؟

لم يرد علي فقلت له:

- إنت حاولت تعدِّل في اللي حصل كام مرة؟

- كتير أوي حاولت أنقذ أصحابنا لكن مابعرفش، إنت الوحيد اللي بلحقك.. الموضوع مش زي ما إنت متخيلة، أنا أول ما أعمل تغيير باشوف كل احتمالاته في المستقبل وأقدر

أروح للاحتمال وأحاول معاه لحد ما يتحول لواقع، لكن فشلت، ومش باقي غير صراع بيني وبين (جعفر) مالوش معنى، محدش فينا يقدر يقتل التاني لكننا هنموت لوحدنا، بس قبل ما نموت هنكون عملنا مليون تغيير في نفس الوقت وجربناهم.

- إنت جسمك مبقاش بشري خلاص؟

ابتسم هو للمرة الثانية في هذا اللقاء وقال كأنه يتذكر شيئًا:

- أكيد (راضي) فلقك بنظرياته عن جسم (جعفر) اللي بقى ذرات مش مستقرة وبتقدر تخترق الجمادات ودايمًا مشحونة بالطاقة وإنها لازم تفضل جنب مكان شحن الطاقة اللي هو المدخل لعالم أرض الحقيقة علشان ذرات جسمه تفضل متماسكة وإلا هيموت بالسرطان.

ابتسمت وأنا أقول:

- (راضي) رغاي فعلًا.

- كان رغاي بس عبقري وفاهم كل حاجة، الله يرحمه، شُفته بيموت كتير.

- إنت بقالك قد إيه في الحالة دي.

- مفيش وقت هنا، من أول ما شغلت المكان وكل حاجة

بتحصل قدامي في نفس الوقت، جسمي بقى جزء من الأرض دي، بموت بس ممكن عقبال ما أموت بالنسبة ليك أكون عايش ألف سنة، لأن الألف سنة أنا بتنقل بينهم في نفس الوقت، تقدر تقول إني هاموت بكرة بس من هنا لبكرة أقدر أعمل حاجات كتير علشان أحاول أحافظ على الزمن ده وأوقف (جعفر).

زادت لسعة العرق المالح لجرحي فتحسست الضمادة بيدي وقلت:

- وهتوقفه إزاي؟

- هامنعه من إنه يغير في الزمن وأعدل الزمن بنفسي علشان (جعفر) يتقبل موت (صفاء).

- هو الزمن ده ملوش أهل يسألوا عليه، كلكم جايين تعدلوه.

- دا مستقبلك إنت كمان.

- إحنا بنتكلم عن أنهي زمن؟ اللي إحنا فيه؟

- آه، ولا إنت عايزه ينهار؟

- إيه رأيك لو حلينا المشكلة من أصلها؟

ابتسم هو وقال:

- إنت لسه مش عارف حاجة، كل الاحتمالات أنا بعملها مخك..

قاطعته:

- تعرف تسافر في الزمن وتوصل للزمن الأصلي اللي بدأ فيه (جعفر) كل حاجة.

مال برأسه وهو ينظر لي ويقول ببطء:

- ولو سافرت للزمن الأصلي ما أقدرش أعدل حاجة، دا زمن خاص بجعفر، أنا لو وصلت لزمنه الأصلي هكون مجرد مشاهد ومش هاقدر أخرج من المكان هنا.

- إنت ماتقدرش تخرج لكن أنا أقدر، إنت مابقتش بشر، بس أنا طبيعي لسه وممكن أعمل تغيير.

لم يرد عليَّ، أعرف هذه النظرة لأني أستخدمها كثيرًا، هو يحاول قراءة نواياي، قلت له بسرعة:

- كل مهمتك تسفرني في الزمن وتوصلني لنقطة واحدة، يوم فرح (جعفر) على (صفاء) وتسيبني أتصرف بطريقة بشرية.

- بس إنت مش هتعرف تنقذها، (جعفر) سبقك وكانت بتموت برضو.

- أنا مش هانقذها، لكن هاخليه يتقبل موتها.. ويعرف إيه اللي هايعمله فينا.

قال باستهزاء:

- هتقنعه إزاي؟

- فيه (حسام) زيي في زمنه والمفروض إنه صاحبه، لما يلاقي اتنين منه هايفهم.

- إنت غبي؟؟ أنا أعرف إني مجنون بس مش غبي، تقنع مين هو جوز خالتك هاتعمله قعدة عرب.

- مفيش حد هايخسر حاجة، سيبني أحاول.

نهض من جلسته وتأملني بشك وهو يقول:

- بس إنت لو أقنعته مش هايغير الزمن والزمن اللي إحنا فيه هايختفي ويفضل زمن (جعفر) الأصلي.

- إنت ماتعرفش الاحتمالات ممكن تبقى إيه، يمكن الزمن هناك يلغي وجودي، ويمكن أموت قبل ما أوصله، لكن تخيل لو نجحت ممكن يحصل إيه؟ كل حاجة هتتصلح لوحدها

- إنت عايز تنهي وجودنا؟

- إنتي عايزني أعمل حاجة زي كده، ويمكن فكرت فيها كمان بس اللي مانعك إنك خايف، أو مش هاتقدر تغيَّر في الزمن الأصلي، وديني هناك يوم فرح (جعفر) وأنا هاستخدم الطبيعة البشرية لينا وأخاطب روحه علشان يتقبل موتها.

- إنت هتفشل، (جعفر) محدش هايقدر يقنعه إنه ينسى (صفاء).

- اعمل محاولتك وابعتني هناك.

نهضت من موضعي وهو يقول:

- لو رُحت الزمن الأصلي احتمال (جعفر) يعرف بوجودك، إحنا بنشوف التغيرات اللي في الزمن كأنها ألبوم صور، ولو صورة جديدة حد ضافها بنشوفها في ساعتها، مش هاقدر أحميك هناك، أنا أقدر أحميك لو عايز تتحرك في زمنا ده.

- لو (جعفر) اللي في البيت وصلي أنا المسؤول.

هز هو رأسه بعدم فهم وهو يقول مستنكرًا:

- إنت عايز تنتحر بطريقة محترمة؟ عايز (جعفر) يقتلك مثلًا ولّا عايز إيه؟

- إنت مش خسران حاجة.

قلتها وأنا أسير ناحيته حتى وجدت ممرًا جانبيًا به نفس المقعد الذي بمنزل (أبو خطوة) وعليه الجثة المحنطة الجالسة الملقى عليها العباءة السوداء، نظرت للعباءة فنظر لها هو أيضًا ثم نظر لي لثوانٍ، تركزت نظرته في عيني، تحرك بعدها بسرعة وسحب العباءة وهو يلف بها نفسه ثم يلقي طرفها علي وأنا أسمعه يقول قبل أن تغطيني العباءة:

- لو إنت مت في الزمن الأصلي هاموت أنا كمان.

***

2005

استقظت بآلام مبرحة برقبتي ومعدتي وحرارة شمس الظهيرة تزيد الطين بلة لاني تعرضت لها لفترة طويلة حتى أستيقظ، فتحت عيني فاصطدمت بضوء الشمس واضطررت لإغلاقها مجبرًا، لكني نهضت وأنا أشتم رائحة شياط تأكدت بعد ثوانٍ أنها من أطراف شعر رأسي المحترق ثم اكتشفت آثار لحروق بسيطة بالجلباب الذي كنت أرتديه على ملابسي فنزعته ليظهر قميصي وسروالي، لهذا صممت على ارتدائهم كي أبدو طبيعيًا هنا إن قبل (حسام) الآخر بإرسالي.

نهضت بصعوبة واقفًا على قدمي فدارت الأرض بي وسقطت ثانية، ارتفعت العصارة المعدية وفوجئت بتقيؤي مواد سائلة تبعتها بعض الدماء مع ألم المعدة الزائد.. هدأت قليلًا وأنا أحرك وجهي يمينًا ويسارًا أتفحص المكان من حولي، رمال تحيط بي من كل جانب لكن على امتداد بصري

أرى تكوين يشبه الهرم من بعيد، هل أنا الآن فوق المدخل والرمال تحجبه عني؟ أم أن (حسام) الآخر قفز بي في مكان أبعد!!

لو صحت حساباتي فإن سرت إلى الهرم ومررت بجانبه فقد أصل لقرية (دهشور)، تحاملت على نفسي، ونهضت ثانية محاولًا السير إلى الهرم الذي كان بعيدًا عني في الواقع لكني أوهمت نفسي بأني اقتربت.

قبل أن أصل له رأيت سرابًا لسيارات تقف بجانب الهرم، حسنًا ليست سرابًا لأن إحداها تحركت وتأتي نحوي، أم هو السراب؟ اقتربت السيارة حتى توقفت بجانبي وهبط منها شابين في العشرينيات:

- مالك يا أستاذ؟

قالها أحدهم وهو يسند جسدي بيديه كي لا أقع وقد كنت معرضًا لذلك فعلًا، قلت لهم بصعوبة:

- عايز أروح القناطر.

ابتسما وأحدهما يقول:

- إنت كنت ناوي تروحها مشي؟

- عايز أروح (أبو النور) طريق القناطر.

قلتها ثم ظلام دامس، فتحت عيني بعد هذا الظلام مفزوعًا لأجد نفسي على فراش كشف في مكانٍ يشبه العيادة وبجانبي يجلس طبيب شاب يشرب كوب من الشاي باستمتاع ويدخن بجانبه سيجارة.

- حمد لله على السلامة.

قالها لي الطبيب بلا اكتراث كأن وجودي هنا أمر طبيعي أو كأننا نعرف بعضنا البعض منذ عشرات السنوات.

- هي دي مستشفى ولَّا عيادة؟

- دا الاستقبال بتاع مستشفى الصفا والمروة.

قالها ونظر أمامه ليكمل استمتاعه بالشاي.. مصر بها ألف مستشفى تحمل اسم الصفا والمروة، هل يعتقد أنني فهمت الآن وسأصرخ من السعادة. بعد أن أعرف أنني في مستشفى الصفا والمروة التي حلمت بدخول استقبالها منذ مراهقتي.

- أيوه فين المستشفى دي؟

- آه إنت مش عارف إحنا فين، إحنا في البدرشين.

نهضت من على فراش الكشف وتحسست رقبتي لأجد ضمادة جديدة وضعت عليه، هل سيبلغ البوليس بسبب آثار الطلق الناري؟

- حضرتك اللي غيرتلي على الجرح ده؟

- آه.. دا كان متبهدل وخلاص هايعفن، إلا مين الدكتور اللي خيطهولك ده، دا شكله حمار.

كدت أقول إنه طبيب منذ أكثر من 150 عامًا وأنه أفضل منه بتلك السيجارة التي يدخنها بجواري، وقفت بجانبه فقال بلا أن ينظر لي كأنه يخاطب شخصًا آخر في تلك الغرفة.

- فيه اتنين ولاد حلال جابوك هنا من 3 ساعات وكانوا فاكرين إن عندك ضربة شمس، بس الموضوع كان هبوط في الضغط فرفعناه..

آه.. ليس معي نقود لأدفع شيئًا حتى ولو كانت لمستشفى الصفا والنور التي لا يوحي هذا الطبيب بأنها مركز طبي عالمي.

- اللي جابوك قالوا إنك كنت ماشي في حتة صحراوية، إنت كنت تايهة ولّا حد طلع عليك ثبتك؟

قال عبارته بنفس البرود والغرور فقلت أنا:

- هو مصاريف العلاج كام؟

- لا خلاص أنا عارف إن ماعكش فلوس.

غزت دماء الخجل أوردة وجهي لكن الطبيب نهض ووضع كوب الشاي جانبًا وأخرج من جيبه ورقة مالية فئة 20 جنيه وأعطاها لي قائلًا:

- علشان تركب وتروح المكان اللي إنت عاوزه.

- لا شكرًا.

صرخ في بجنونٍ أن أقبلها ثم حلف بالطلاق ثلاثة بغضب حقيقي كأنه يهددني بأنه سيطلقني أنا شخصيًا، أخذتها منه وشكرته، الطبيب تعامل معي بشهامة لكن طريقته في الحديث تجبرني على تحطيم محتويات تلك الغرفة على رأسه.

خرجت من المستشفى التي هي أقرب لمجموعة عيادات في الطابق الأرضي، أوقفت أحد المارة وسألته عن الساعة وعن كيفية الوصول لشارع الهرم الرئيسي.. الساعة الآن الرابعة عصرًا، يجب أن أصل بسرعة للقرية إن كنت في حضرت في الوقت الذي أريده.

ركبت المواصلات من (البدرشين) إلى (الهرم) إلى (شبرا الخيمة) ثم استقللت ميكروباص إلى (أبو النور).

لو كان هذا العالم هو عالمًا وزمانًا غير زمني فحتى الآن لم أرَ أي اختلاف بين العالمين، غير أنني عندما كنت داخل الميكروباص ومزرت على (باسوس) ثم اقتربت من منطقة (الحادثة) التي يقع بها منزل (أبو خطوة) شعرت بانقباضة في قلبي.. أهو خوف نفسي أم شعور حقيقي!! اقترب الميكروباص أكثر وبقى بضع ثوانٍ على المرور من أمام المنزل، ها هو يمر، ألقيت نظر

مرتعبة من نافذة الميكروباص، فجأة توقف الميكروباص على بعد بضعة أمتار من المنزل وسمعت صوت سباب السائق وهو يقذف سيارته بأقذع الألفاظ، السائق يحاول إدارتها لكنها تأبى.

نظرت خلفي لأرى من الزجاج الخلفي للميكروباص، السائق الغبي يملأ النافذة الخلفية بملصقات تشرح حالته العاطفية والنفسية، لكن بين تلك الملصقات استطعت تمييز ما كنت أخاف منه.. (جعفر).. يقف أمام المنزل بملابسه السوداء يبادلني النظر، نظرته هادئة باردة خالية من المشاعر، كأنه لم يندهش لوجودي.. ما الذي سيفعله؟ هل سيخطتفني من وسط الناس؟ أم.. دار موتور الميكروباص فانطلق السائق وأنا أنظر لجعفر الذي أبتعد عنه لكنه لا يتحرك، ابتعد الميكروباص عن المنزل لدرجة أنني لم أعد أراه لكني ما زلت أشعر بجعفر ينظر لي بعينيه المخيفة.

نظرت أمامي وأنا أتخيل ما الذي سأواجهه، هل سيقتلني؟ لن أخسر كثيرًا، على الأقل سيقتلني وأنا أحاول التحرر.. حاولت إبعاد الأفكار المخيفة عن رأسي وأنا أراقب الطريق شاردًا حتى لمحت مدخل قرية (أبو النور) يظهر جليًا أمامي والميكروباص يدخله، في تلك اللحظة بالذات تأكدت أنني في التوقيت الصحيح، المدخل الفسيح للقرية يمتلئ بأقمشة

الفراشة ومقاعدها بطول مدخل القرية إلى داخلها، مسافة تساوي كيلو متر كامل حتى موقف الميكروباص الذي توقف فيه السائق.

هذه الزينات تناسب فرح حفيد كبير عائلة (الدهان)، بقي أن أسأل على... صدمت وأنا أرى (جعفر) يقف بعيدًا بجانب تجمع للشباب، هذا هو (جعفر) من داخل المنزل، أصبحت أعرفه بسهولة، لماذا يقف هكذا ناظرًا لي؟ هل يعرف ما في ضميري؟ سرت بعيدًا عنه لداخل القرية لأغرق في حشود الناس السائرة والذي جاء معظمهم لحضور الفرح على الأغلب برغم أن الليل لم يأتِ بعد، العجيب أن (جعفر) ظلَّ يحرك رأسه متتبعًا إياي وأنا أغيب في الحشود حتى اختفيت عنه.

هل يتابعني فقط ليعرف ما أنتوي! أم ينتظر لحظة معينة لينقض عليّ؟، ألقيت تلك الأفكار عن بالي وأنا أقول بيني وبين نفسي أن العمر واحد والرب واحد.. سألت أحد المارين عن منزل (جعفر) العريس فنظر لملابسي المهلهلة وشعري المنكوش والضمادة على رقبتي وسألني هل أعرف (جعفر).

- دا صاحبي.

نظر على هيئتي ثانية ثم أشار ناحية شارع جانبي وقال:

- ادخل هناك دا عب ولاد (الدهان)، ما أعرفش العريس فين بالتحديد، ممكن يكون في أي بيت من بيوتهم.

تركته وأنا أحاول ألا أصطدم بكل هذه المقاعد التي تفترش الطريق يمينًا ويسارًا في كل شوارع القرية وبعض الشباب يحضرون مناضد لرصها استعدادًا لبدء العرس.

دخلت الشارع الذي امتلأ بشباب ورجال ونساء يسيرون في كل مكان بلا وجهة، لكن على وجوههم جميعًا ترتسم الابتسامات وبعضهم يتكلم بصوت جهوري يلقي بنكتة أو يلقي السلام على أحدهم أو يأمر أحد الشباب برص مقاعد أكثر.

حالة جميلة من الفرحة تغمرهم، في الغالب هم جميعًا من عائلة (الدهان).. يا ترى هل منهم من قتل في زمني داخل منزل (أبو خطوة) أو حتى هنا في القرية عندما كانت العائلتين تصفيان بعضهما البعض!!

- مالك يا (حسام)؟ إيه اللي بهدلك كده، دا أنا سايبك من ساعة.

نظرت للمتكلم الذي سمعته بصعوبة وسط كل أصوات الضجيج من حولي.. (فرغلي المستكاوي)، في سنة الطبيعي يرتدي بدلة زرقاء تلمع بمبالغة شديدة وقميص وردي اللون

وربطة عنق زرقاء لامعة هي الأخرى، وعلى رأسه وضع أطنان من مثبت الشعر وبعض الملمعات والجليتر الذي أنار شعر رأسه كأنه مصباح أفراح.

ضحكت من قلبي لرؤيتي له بهذا الشكل وشعرت بالفرحة لسبب لم أتبينه، قلت له:

- فين (جعفر) عايز أشوفه.

- قولي إنت بس مالك؟ أنا سيبتك علشان تلبس وتحصلني، إنت عملت حادثة وإلا أكلت علقة وإلا إيه؟

- هاحكيلك بعدين، قولي ألاقيه فين؟

- طب تعالى نقف مع أصحابنا.

أمسكت فجأة تلابيب ملابسه وجررته ناحيتي وأنا أقول عبارتي في أذنه:

- اخلص وقولي ألاقي (جعفر) فين؟

- بالراحة يا عم الجامد، هاتلاقيه بيلبس البدلة في بيت عمه (متولي).

- فين بيته ده؟

أشار ناحية أحد المنازل فتركته وذهبت لهناك وأنا أسمعه ينادي عليَّ، اخترقت حشود الجموع المتجمعة أمام المنازل حتى

وصلت للمنزل ذي الباب المفتوح الممتلئ بالشباب في كل مكان حتى على درجات السلم، الجميل أنني سمعت ترحيب منهم جميعًا بالتقريب والكل يناديني باسمي ويسألني عن سبب إصابتي، مثلت أنني أعرفهم وطلبت منهم أن يوصلوني بجعفر لأني أريد إخباره بشيء قبل أن أذهب لارتداء ملابسي، أخذني مراهق منهم يبدو أنه يعرفني لأنه ثرثر كثيرًا في كلام لم أفهمه وهو يتقدمني صاعدًا السلم إلى الطابق الثاني الذي امتلأ على آخره هو الآخر بالشباب، اخترقنا الجموع وهم يلقون عليَّ التحيات والاستفسارت كالعادة، لا أصدق أنني أعرف كل هؤلاء البشر في هذا الزمن، كيف أحفظ أسماءهم حتى.

دخلنا شقة ثم توقفنا أمام غرفة طرقنا بابها ففتح لنا أحد الشباب مبتسمًا وصافحني بقوة، سألته عن (جعفر):

- إيه ده مالك يا (حسام)؟

كان هذا (جعفر) وهو يظهر من خلف الشاب مرتديًا سروالاً وقميصًا بدلة الفرح، اطمئن قلبي له ونبض قلبي يتسارع كي أتحكم فيها أقول.

- عايزك في موضوع مهم لوحدنا، مش هاخد من وقتك كتير.

ابتسم لي وهو يقول:

- إنت بتتكلم بأدب كده ليه ياد؟ تعالى خش.

دخلت لأجد شابين آخرين بالداخل، فهمست بأذنه مؤكدًا أنني أحتاجه وحيدًا، أخرجهم جميعًا وهم يلوحون لي سلامًا قبل أن يغلق الباب ويجلس على مقعد بجانب فراش نوم قديم وهو ينظر لي ويقول بدهشة:

- إنت داسك قطر ولّا إيه؟

- أنا كويس.

قلتها وأنا أجلس على طرف الفراش.

- كويس إيه!! انت كنت معايا إمبارح وإحنا بنغير الجزمة، لحقت تتخرشم كده إمتى؟

- (جعفر) أنا عايز أقولك كلامماينفعش حد يخش علينا وإحنا بنقوله، ممكن تقفل الباب بالمفتاح.

نظر لي باستغراب وقال:

- إنت حصلك مشكلة؟ قول خضتني.

- ريحني واقفل الباب الأول.

نهض يقدم قدمًا ويؤخر الأخرى واتجه للباب وأدار مفتاحه فيه دورتين قائلًا:

- إنت متغير كدة ليه؟

عاد ليجلس فابتلعت أنا ريقي وبللت شفتي بلساني وقلت:

- أنا مش (حسام) اللي إنت عارفه، أنا من زمن تاني إنت كنت السبب إنه اتفتح.

ابتسم وهو يعتدل على مقعده لا يجد ما يقوله أو حتى ما يفهمه من حديثي لكني أكملت:

- النهارده عيلة (السلاموني) هيحاولوا يقتلوك، لكن (صفاء) هتموت بدالك، دا قدرها بس انت مرضتش بالقدر ده.

صرخ هو:

- بتقول إيه؟؟ إنت اتجننت يا (حسام)

رددت عليه مترددًا ويائسًا:

- افهم اللي بقولهولك، إنت بغرورك هتفتكر نفسك اله تتحكم في حياة اللي حواليك، لدرجة إنك هاتعمل عالم جديد وتحكم على الناس فيه بالموت والحياة بكيفك، وأنا واحد من الناس دي وجاي أقولك إنه خلاص مش هاينفع تكمل.. لازم نتقبل الموت زي ما بنتقبل الحياة.

- (حسام) أنا مش طايق نفسي، لو كنت بتعمل مقلب وقفه.

نهضت ومشيت حتى وصلت إلى التسريحة ونظرت للمرآة التي تعلو زجاجات العطر وعلب كريمات الشعر، رأيت صورتي شاحبة خائفة يائسة غير آدمية، رأيت في المرآة (جعفر) ينهض من على المقعد ويقترب مني قائلًا:

- مالك يا صاحبي؟ إيه اللي تاعبك؟

أمسكت زجاجة عطر وقلت:

- إنت يا (جعفر)

استدرت بحركة حادة وأنا أهشم زجاجة العطر على رأسه، صرخ وتراجع للوراء والدماء تسيل غزيرة من رأسه ومن يدي التي دخلها بعض الزجاج المهشم، أما هو فلم يصدق ما رآه، عيناه قالتا هذا وكأن جرح رأسه لا يعنيه أكثر مما يعني أن أكون أنا مسببه.

أعطاني ظهره وحاول فتح الباب لكن قفزت ناحيته وتعلقت به من ورائه وأنا ألف يدي اليمنى على رقبته محاولًا خنقه لكنه كان أقوى مني وحملني وهو يتراجع بظهره للوراء ليضرب جسدي بالمرآة، لكني تشبثت به أكثر والمرآة تتهشم وأشعر بزجاجها المتطاير يخترق شعري ويتناثر على جسدي.

مُتْ يا (جعفر) وانشر السعادة لكل من عرفتهم.

ثقل جسدي في النهاية جذبه للأرض فوقع فوقي وأنا مازلت أطوقه خلف رقبته وظهري يسقط على الزجاج المتناثر وأشعر به يخترقني.

مت يا (جعفر) ولا تقاوم فأنت لم تسمح لنا بمقاومتك وأنت تتحكم في مصائرنا.

بدأ يختنق وتحشرج صوته وهو يقول:

- ليه!!!

لأنك كنت صديقي وتلاعبت بي لأجل فتاتك، لأن عائلتك ذبحت لأجل فتاتك، لأنه قد حان الوقت لوضع الأمور في نصابها الصحيح، كان يجب عليك أن تموت اليوم لكنك ظللت تهرب.. أنت تموت ويحيا الجميع.

زادت حشرجة صوته فمددت يدي اليسرى إلى ذقنه أسحبها للأعلى وأبعدت يدي اليمنى عن رقبته، أبعدتها لأنني أستخدمها الآن في البحث عن أي قطعة زجاج مهشم من حولي، وجدت قطعة أمسكتها بقوة فجرحت كف يدي لكني لم ولن أتوقف، مددت قطعة الزجاج أحاول أن أذبح رقبته بها لكنه فطن فاعترض يدي الممسكة بقطعة الزجاج بيده، جرحت يده بالزجاج فتأوه ثم وضعت القطعة على رقبته وصنعت شقًا بعرض كامل رقبته وجسده ينتفض وتزيد قوته

وأنا أسحب بيدي اليسرى ذقنه للخلف بقوة أشد.. سمعت صوت طرقات قوية على الباب وأصوات شباب ينادون على (جعفر).. الدماء تتناثر في كل مكان وصوت غرغرة يخرج منه وهو يحاول الإفلات مني، طرقات الباب تزداد والدماء تقل والثواني تمر وحركة جسده تهدأ وتخف ارتعاشاته نسبيًا حتى خمدت.

أنا الآن مستعد للموت أو حتى لما هو أسوأ، لقد انتهى كل شيء لي.. الشباب بالخارج يحاولون كسر الباب وأنا أغمض عيني مستسلمًا لما سيحدث.

***

خاتمة

لا أصدق أنني أكتب ما أكتب الآن، ولا أصدق نفسي حين أتذكر ما حدث، آخر ما أعرفه بعد أن قتلت (جعفر) أنني صحوت من النوم لأجد نفسي في فراش بشقة غريبة، لكني وجدت أبي وأخي يعيشون معي وبالطبع اندهشوا من طريقتي في معاملتهم، لكن الذي أرعبهم أنني بكيت عندما سألت عن والدتي لأعرف أنها ماتت عندما كنت بالسادسة.

أمي كانت تعيش معنا وأنا واثق من هذا، لكنها هنا ميتة منذ زمن، نعم هنا، لأني في نفس يوم استيقاظي اندهش أبي أنني نمت من الأساس وسألني كيف أنام وقد عدت من الخارج منذ قليل بعد أن كنت مع (فرغلي) صديقي.. عدت لأرتدي ملابس تليق بعرس (جعفر) المقام الليلة.

بعد قليل من حديثه معي رن هاتف محمول أكثر من مرة، اكتشفت أنه ملكي وفيه أرقام مسجلة بأسماء لا أعرفها، رددت على أحدها لأجد أنه شاب يبكي ويبلغني بمقتل (جعفر) في

الغرفة التي كان يرتدي فيها ملابسه، وجدوه مذبوحًا ولم يعرفوا الفاعل ولا كيف دخل للغرفة التي أغلقها (جعفر) على نفسه!

هل كنت في حلم طويل واستيقظت منه الآن؟ لكن مرآة الحمام كان لها رأيًا آخر، هناك أثر لجرح قديم على رقبتي سألت عنه أخي فأخبرني أنه يراه لأول مرة اليوم.

حضرت جنازة (جعفر) ورأيت بها (فرغلي)، كان الجميع يبكي لكني عجزت عن البكاء فاعتبروا أن ذلك جراء الصدمة التي وقعت بي.. الحقيقة أنني عجزت لأنني لم أفهم ما حدث بي، هل أنا (حسام) من الزمن الأصلي وانتقلت لي ذاكرة (حسام) الذي قتل (جعفر)، أم أنا الذي أتيت من الزمن الفرعي وسأكمل حياتي هنا؟؟

والأهم هو لماذا طوال الفترة السابقة و(جعفر) يقتل كل من حولي ويتركني لأعيش، كأنه يتركني لسبب يعرفه أو خطة يقوم بالتحضير لها منذ زمن، هل كان يعلم أنني سأذهب لحسام الآخر وأطلب منه ما طلبت؟؟ هل (جعفر) أراد أن يقتل وهُيِّأ لي كل هذا لذلك كان يظهر لي قبل ذهابي للعرس أمام المنزل وداخل القرية ليخبرني بطريقة أو بأخرى أنه يعلم مصيره ويتقبله؟

عشت في جحيم الأسئلة لعام كامل بلا إجابات شافية،

في هذا العام بحثت عن (راضي)، كان بحثًا مضنيًا وجدته في النهاية ولكنه لم يتعرف عليَّ، اضطررت إلى مصادقته من جديد لكنها كانت مصادقة جافة من طرفه فهو يراني متطفلًا على حياته لا أكثر، لكني كنت سعيدًا وخاصة أنه خطب (دعاء) بعد قصة حب طويلة وتزوج منها الآن وقد أنجب طفلًا، الغريب أنه سماه (جابر) وعند سؤاله أخبرني أنه يجده اسمًا جذابًا!!

(أحمد عصفور) وصلت إليه لكني عرفت أنه سافر لدولة خليجية للعمل، وهو الآخر لم يعرفني أو يشاهدني من قبل على حسب كلامه.

(عمرو صفوت) المصور لم أستطع الوصول له لكني ما زلت أحاول، (عمر أبو خطوة) تعرفت عليه بسهولة لأنه رجل أعمال ناجح ويظهر كثيرًا في أخبار الجرائد، لن يتوقع أحدٌ أن هذا الرجل له خدام من الجان ويقوم بفتح المقابر لسرقة محتوياتها.

(صفاء) على الجانب الآخر يبدو أنها كانت تعرفني جيدًا بحكم صداقتي بجعفر، مرت بفترة اكتئاب زالت عنها بعد ثلاث سنوات وعادت لتحاول الاندماج في الحياة لكنها لم تستطع إخفاء جرحها في مقتل حبيبها.

(فرغلي) ظلَّ صديقي دائمًا لكن كانت تواجهني معه مشكلة أنني لا أتذكر الذكريات المشتركة التي يحكيها لي، لكن مع

(فرغلي) لا مشكلة فهو يتقبل ضعف ذاكرتي الذي أقنعته به.

أما أنا فقد عشت فترة أحاول التأقلم مع أصدقاء لم أعرفهم من قبل وأماكن لم أعتد زيارتها، وأقارب أحياء كانوا موتى في عالمي السابق وموتى رأيتهم أحياء ها هنا، بعد فترة من تقبل حالتي فكرت في إعادة اختيار مجال عملي، لن أعمل معدًا للبرامج، لكن بدأت بممارسة هواية الكتابة الروائية، نشرت لي بعض الروايات برغم سني الصغيرة وأطمح بأن يصبح هذا المجال هو هوايتي وعملي في المستقبل.

أعيش الآن منتظرًا حدوث شيء لكني لا أعلم ما هو، أنا الوحيد فيمن حولي الذي يحمل ذكريات عن حياة أخرى كنا نعيشها، أنا الوحيد الذي تراوده الكوابيس والأحلام، وكثيرًا ما ضبط نفسي أحلم بعودتي لعالمي السابق بكل فجائعه وأحزانه، لكني سأنتظر، إلى متى.. لا أعلم فالانتظار ليس خيارًا..

حسام عبد الوهاب المهدي

القاهرة

2010

تمت

الأعمال السابقة للكاتب

- مخطوطة ابن إسحاق (مدينة الموتى)/ رواية.
- مخطوطة ابن إسحاق (المرتد)/ رواية
- مخطوطة ابن إسحاق (العائد)/ رواية
- الجزار/ رواية
- نصف ميت/ رواية
- لقاء مع كاتب رعب/ رواية
- حكايات فرغلي المستكاوي/ رواية
- في حضرة الجان/ مجموعة قصصية
- ابتسم فأنت ميت/ رواية
- ليلة في جهنم (منزل أبو خطوة)/ رواية
- ضريح عمرو بن الجن/ مجموعة قصصية